

القطرة والمحيط

مسار روح بين الفقد
واليقظة والعودة

فرانسوا وائل بيضون

القَطْرَةُ وَالْمُحِيطُ

مَسَارُ رُوحٍ بَيْنَ الْفَقْدِ
وَالْيَقَظَةِ وَالْعَوْدَةِ

فرانسوا وائل بِيضُون

سيرة ذاتية



حقوق الطبع والنشر

© ٢٠٢٦ فرانسوا وائل بَيّضون — جميع الحقوق محفوظة.

هذا الكتاب طبعةٌ مُنقّحة ومُوسّعة من «مَسَارُ العُودَة — بين الأرض والنجوم — درب الحالم المُستيقظ». صُحّحت بعض التواريخ، وحُدِّثت الرسوم والأطر والتمارين لِصالح قراءة أكثر انسياباً. أُغْنِيَتْ بعض الفقرات بذكریاتٍ وتفاصيل لم أَكُن قد قَدَّمْتُها في الطبعة الأولى.

يَمْلِك المؤلف كاملَ الحقوق العالمیّة على هذا العمل وعلى ترجماته. هذه الطبعة لا تنتمي إلى الملكية العامة.

ترخيصُ نشرٍ غير حصريٍّ مَمْنوحٌ لِمَنْصَة «جوجل بلاي للكتب» ولَمَنْصَاتٍ رقميةٍ أخرى.

يُمنع منعاً باتاً أيُّ نسخٍ أو اقتباسٍ أو نقلٍ لهذا المنشور، ولو جزئياً، بأيّ وسيلةٍ كانت، من دون إذنٍ خطِّيٍّ مُسبقٍ من المؤلف، باستثناء الحالات التي يُجيزها القانون.

ترجمة ومراجعة

النصُّ الأصليُّ لهذا الكتابِ مَكْتُوبٌ بِالْفَرَنسِيَّة. تَمَّت تَرْجَمَتُهُ إِلَى الْعَرَبِيَّة بِمُساعدَةِ ذَكَاءٍ اصْطِنَاعِيٍّ مُتَقَدِّمٍ («Claude»)، شركة (Anthropic)، تحت إشرافِ المؤلفِ ومُراجَعَتِهِ المُستمرّة.

تَفَضَّلَتِ السَّيِّدَتَانِ إِيْمَانُ بَيْضُونُ وَسُوزَانُ بَيْضُونُ، شَقِيقَتَا الْمُؤَلِّفِ،
بِمُرَاجَعَةِ كُلِّ فَصْلٍ مِنْ هَذِهِ التَّرْجَمَةِ، مُقَدِّمَتَيْنِ وَقَتْنَهُمَا وَخَبَرَتَهُمَا
الْعُيُوبَ بِسَخَاءٍ تَامٍّ. لَهُمَا مِنَ الْمُؤَلِّفِ امْتِنَانٌ عَمِيقٌ.

المعلومات القانونية

الطبعة الأولى — نَشْرُ ذَاتِيَّ (إصدار: فرانسوا وائل بَيْضُون).

الإيداع القانوني: حزيران ٢٠٢٦ — المكتبة الوطنية الفرنسية
(BnF).

رقم الكتاب الدولي (ISBN) — النسخة العربية:

٩٧٩-١٠-٩٧٩٩٨٣-٤-٩



الفهرس

٧	المقدمة
١١	الفصل الأول — ثَقْلُ الأصول
٢٩	الفصل الثاني — ما باح به قلبها
٣٥	الفصل الثالث — جُرْحُ الأب
٤٥	الفصل الرابع — ليلة الروح المظلمة
٥١	الفصل الخامس — انبثاق الكونداليني
٦٩	الفصل السادس — نداء الأياهاواسكا
٨٥	الفصل السابع — القُدراتُ المنسيّة
٩٩	الفصل الثامن — شانيا
١٠٥	الفصل التاسع — الأندلس
١١٣	الفصل العاشر — نادي شاسترا
١٢٤	الخاتمة



المقدمة

ينبغي علينا أحياناً أن نقبل بأن نضيع، لنجد أنفسنا أخيراً.

لقد جهلتُ ذلك زمناً طويلاً. سنواتٍ كثيرة، خلطتُ بين الفقد والإخفاق — فقد اليقينيات، فقد الإيمان، فقد الأحباء، فقد الحياة التي كنتُ قد تخيلتها لنفسي. ولزمني وقتٌ طويل، وحظٌ من العتمة، لأفهم أن كلَّ خسارةٍ من تلك الخسارات كانت في الحقيقة باباً. هذا الكتاب هو قصة تلك الأبواب. وقصة ما وجدته، في كلِّ مرة، من الجهة الأخرى.

أهدي هذه الصفحات إلى والدي، اللذين صاغ حُبهما وتضحياتهما الرجل الذي أصبحته. إلى أمي، التي علّمتني أن البصمات التي نتركها وراءنا أثقل من كلِّ ما نراكمه. وإلى أبي، الذي حكمتُ عليه بقسوةٍ أكثر مما ينبغي، ولزمني أطول مما ينبغي، والذي انتهيتُ إلى أن أستقبل حبه الناقص بامتنان.

إلى كلِّ من يشكّ، ومن يترنّح، ومن يبحث عن طريقه في الظلّ، أقدم هذه الشهادة. لا لأقنع. لأذكر فقط بأن القوة الأكثر صمتاً كثيراً ما تتجلى في لحظات السقوط.

وإلى كلِّ من يعيشون في صمتٍ أشياء لا يعرفون كيف يُسمونها — حضراتٍ يلمحونها، تزامناتٍ تُحيرهم، حدساً يتجاوزهم —

القَطْرَةُ والمُحِيط

أُقَدِّمُ هذه الصفحات أيضاً. لستم وحدكم. لستم مجانين. شيءٌ حقيقيٌّ يُعْبِرُكم، وثَمَّةُ كلمات، أحياناً مُتَعَثِّرة، لِقوله.

في الثانية والستين من عمري، أَحَسَسْتُ بُدْءاً يَدْعُونِي إلى الكتابة. لا لِأُشْرَح. لا لِأُبْرِهِن. لِأَشْهَد فقط على حياةٍ حميمةٍ كونيّةٍ في آن، مَنْسُوجَةٍ من اختياراتٍ حاسمة، ومن لقاءاتٍ تُحوِّل، ومن لحظاتٍ مُعَلِّقَةٍ حيث جَعَلَ اللامرئيُّ نفسه مَحْسُوساً.

كُلُّ مرحلةٍ من هذا المسار كُنَّيْتُ في حوارٍ صامتٍ مع ما أُسمِّيه «الواحد». مَنَبَعَ الصفاء، الوَحْدَة، الرابطة — الذي عَرَفْتُهُ بأسماءٍ كثيرة وتَعَرَّفْتُ إليه في صُورٍ كثيرة، لكنّه، في الحقيقة، لم يَكُنْ غائِباً أبداً.

سَيَطْلُبُ منكم هذا الكتاب أن تُعَلِّقُوا شَكَّكم. لا لِتُؤْمِنُوا. لِتُصْغُوا. ما أَصِفُهُ عَشْتُهُ — بلا تَرْتُّب، بلا عَقِيدَة، بلا مُعَلِّم. إن بَدَتْ لكم بعضُ الصفحات غريبة، فذلك على الأرجح لأنّها كذلك. الواقع، أحياناً، أَوْسَعُ بكثير من الأطر التي نَحْبِسُهُ فيها.

هذا الكتاب يَعبُرُ حدودَ المَعلوم. يَستَقْبِلُ اللامرئيَّ، والمَجهول، والحَقِيقَةَ العارِيَةَ لِتَجارِبَ تَستَعصي على التَصنيفات المُطمَئنة. لا ادَّعي أَيَّ حَقِيقَةٍ مُطلَقة — فقط صِدْقَ ما عَشْتُهُ. لِلقُرَّاء ذوي الحَساسِيَّةِ العَقْلانيَّةِ، أتمنّى أن أُقَدِّمَ لا دَعْوَةً إلى الإيمان، بل دَعْوَةً إلى البقاء مَفْتُوحين. ولأولئك الذين أَحَسَّوا فعلاً بُدْءاً حُضورٍ أَوْسَع، فَاعْلَمُوا هذه الصفحات تَجِدُ صَدَيَّ في مسارهم الخاص.

ما عَشْتُهُ لَا شَيْءَ فِيهِ اسْتِثْنَائِيٌّ وَلَا هَامِشِيٌّ. هو، كما أُؤْمِنُ الْيَوْمَ،
تَذْكِيرٌ — بِذَاكَ كَوْنِيَّةٍ نَحْمِلُهَا جَمِيعاً، وَقَدْ نَسِيَهَا مَعْظَمُنَا بِبَسَاطَةٍ.
عَسَى أَنْ تُصِيرَ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ مَنَارَةً لِكُلِّ الْبَاحِثِينَ عَنْ مَعْنَى.
وَعَسَى أَنْ تُذَكِّرَ بَأْنَ النُّورِ، حَتَّى فِي أَحْلَاكَ لِيَالِينَا، لَا يَكُونُ بَعِيداً
أَبَداً.
لَأَتْنَأُ وَلِدْنَا مِنَ الْوَاحِدِ...
وَالِيهِ نَعُودُ.



الفصل الأول

ثَقْلُ الْأَصُولِ

بيروت، الأعوام ١٩٦٢-١٩٨٤ — جذورٌ عائلية

الجذور الأمومية

سِرٌّ يُهَمَسُ بِهِ

كانت تنتظر حتى يُغادر الآخرون الغرفة.

حينئذٍ — ويدأها لا تزالان على ظهري، خفيفتين بلا عجلة، يدان تعلّمتا أن تُعطيا بلا طلب — تنحني نحوي جدّتي وُثمَس، كما لو أنّ الجدران ذاتها قد تسمع:

« عندك نفس الأصالة يَلِيّ كانت عند جدّك. »
صمت. ثمّ، بصوتٍ أخفض:

« بس ما تقول لحدّا. »

كنتُ طفلاً. لم أكن أفهم كلّ شيء. غير أنّي كنتُ أفهم هذا: ثمّة رجلٌ لا يُلفظ اسمه، لا تتجو ذكراه إلا في الهمسات — وأنا أحملُ في داخلي — دون أن أدري كيف — شيئاً منه.

القَطْرَةُ والمُحِيط

كان اسمه فُوزي. جَدِّي لأمِّي. اختطفه المرض في الثانية والثلاثين،
قبل أن أُوَلد، قبل أن يتعلَّم معظم أفراد العائلة كيف يعيشون بدونه.
غيابُه صاغ كلَّ شيء — الصمت حول المائدة، النَّذر الذي قطعته
جَدَّتِي ولم تنكُته يوماً، الثروة التي لم تُعد، والمرأة التي صارتها
أمِّي.

لِفَهم من أين جئتُ، لا بدَّ من البدء به. ممَّا تركه خلفه — وممَّا
هدمه غيابُه.

حُبُّ كُسِرَ باكراً

كانت جَدَّتِي لأمِّي امرأةً متعدِّدة المواهب — قائمةً محوريَّةً مُلهمةً
في عائلتنا. طاهيةٌ بارعة، عارفةٌ بالطبِّ العربيِّ التقليديِّ، حَكَّاءةٌ لا
مثيل لها، كانت تُضيء حياتنا بطريقتها. كلَّ مساء، كانت تقرأ
لِفُوزي حكايةً من «ألف ليلة وليلة»، مأخوذةً من المجلِّدات السبعة
الفاخرة، المُزدانة بمنمنماتٍ بديعة، التي كان قد أهداها لها.
كانا ثنائياً غارقاً في الحبِّ، لا يفترقان — إلى أن باغتهما القدرُ
بضرِبته الأقسى. عدوى فاتكةٌ خاطفة اختطفته. كان في الثانية
والثلاثين.

موته المبكِّر قلب عالم جَدَّتِي رأساً على عقب، وحسم مصير العائلة
بأكملها إلى الأبد.

الصُّبْحِيَّة — أناقة الصباغات البيروتية الأسبوعية

قبل أن يَهوي القدر، كان بيئهما يُشعّ. كان محراباً، فضاءً للدفع والتقاليد والأفراح المشتركة. جدّتي، وهي خفيفةُ الهمّ في تلك السنوات، كانت تُعزف على العُود أو القانون بخِفّةٍ تُحيل كلّ لحظة إلى ذكرى لا تُنسى. هاتان الّلتان الشرقيّتان التقليديّتان، الموروثتان مباشرةً من العهد العثمانيّ، كانتا تحملان روحَ زمنٍ بأكمله.

كانت تُعزف لِزوجها، لِصديقاتها، أحياناً وهي ترتدي بدلةً رجاليّة، شعرُها مَقصوصٌ قصّةً صَبِيانيّةً قصيرة، مُتَكِنّةٌ على عصا — جُرأةٌ كانت تُفَتّن كلّ من يراها.

في كلّ أسبوع، كانت تُستقبل ضيفاتها في الصُبحيّة، تلك اللقاءات الصبّاحيّة التي يتمازج فيها الرُقّيّ والبساطة في تناغمٍ بديع. كانت السيّدات يجلسنَ بأناقة، يَخْدُمهنَّ نُدُلٌ يُستأجرون للمناسبة من المقهى نحاسيّ (samovar) المجاور. في وسط الغرفة كان يَتَرَبّع سَمَوَفَرٌ مهيب — تلك الغلايّة الشرقيّة الكبيرة التي يُحضّر فيها الشاي ويُسكَب منها للضيوف — رمزٌ مُتألّق لِفنّ الاستقبال. كان حضوره يُلَفّ المكان بدفءٍ آسر، وكان شايه الفائز يُرافق الأحاديثَ المتدفّقة والقهقهات. هذه الصبّاحات الحميّة كانت تبدو مُعلّقةً خارجَ الزمن — كأنّ لا شيء، أبداً، يُمكن أن يَكسرها.

ومع ذلك، شيءٌ ما كَسَرها.

حياة قلبها الحِداد

موثٌ فَوْزِي المَبَاغِتْ كان مُنْعَطِفاً لا رَجْعَةً فِيهِ فِي حَيَاةِ جَدَّتِي.
مُهْتَزَّةً فِي الْأَعْمَاقِ، نَطَقَتْ نَذْراً جَلِيلًا: لَنْ تَعَزِفَ مُوسِيقَى بَعْدَ
الْيَوْمِ، لَنْ تَرْقُصَ، لَنْ تُغَنِّيَ، وَلَنْ تَلْبِسَ السَّوَادَ بَعْدَ هَذَا الْحِدادِ
الْأَخِيرِ — الَّذِي وَسَمَتْهُ بِوَقَارٍ نَادِرٍ. تَحِيَّةٌ فَرِيدَةٌ لِلرَّجُلِ الَّذِي أَحَبَّتهُ
إِلَى هَذَا الْحَدِّ، وَالَّذِي تَرَكَ غِيَابُهُ فَرَاغًا هَائِلًا، فِيهَا وَفِي الْعَائِلَةِ كُلِّهَا.

الْكَلَامُ عَنْ فَوْزِي صَارَ، شَيْئاً فَشِيئاً، نَوْعاً مِنَ الْمُحَرَّمِ فِي الْبَيْتِ.
مَعْظَمُ أَفْرَادِ الْعَائِلَةِ جَهِلُوا الظُّرُوفَ الْحَقِيقِيَّةَ لِمَوْتِهِ، مِمَّا لَمْ يَزِدْ
الصَّمْتَ إِلَّا كَثَافَةً. وَمَاذَا تَبَقَّى مِنْ إِرْثِهِ؟ رَغْمَ أَنَّهُ تَرَكَ خَلْفَهُ ثَرَوَةً
ضَخْمَةً — مَتَاجِرَ فِي قَلْبِ بَيْرُوتَ — انْهَارَ رِخَاؤُهُمْ بِلَا إِنْذَارٍ. كُلُّ
أَمْوَالِهِمْ، الْمُسْتَثْمَرَةُ فِي شَبَكَةِ سَكِّ حَدِيدِ الْعَابِرِ السِّيْبِيرِيِّ الْمَرْمُوقَةِ،
تَلَاشَتْ إِنْثَرْتَ تَأْمِيمَ سَكِّ الْحَدِيدِ الرَّوسِيَّةِ فِي أَعْقَابِ الثَّوْرَةِ الْبُلْشَفِيَّةِ
عَامَ ١٩١٧.

رَجُلٌ مُجِيَّ اسْمُهُ. ثَرَوَةٌ تَبَدَّدَتْ. اسْمٌ مَمْنُوعٌ.
وَجَدَّتِي، وَحْدَهَا مَعَ سِتَّةِ أَوْلَادٍ، وَحَزَنٌ سَتَحْمَلُهُ، شَامِخَةٌ صَامِتَةٌ، إِلَى
آخِرِ أَيَّامِهَا.

كِفَاحٌ مِنْ أَجْلِ الْبَقَاءِ

فِي وَجْهِ الْإِنْهِيَارِ، تَحَمَّلْتُ جَدَّتِي وَحْدَهَا عِبَاءَ تَرْبِيَةِ أَوْلَادِهَا السِتَّةِ.
أُمِّي، الْإِبْنَةُ الْوَحِيدَةُ وَبِكُرِّ الْإِخْوَةِ، اضْطَرَّتْ أَنْ تَتَنَازَلَ عَنْ أَحْلَامِهَا

في الدراسة لتلبية الحاجات الملحة للعائلة. في الثامنة عشرة من عمرها، تركت المدرسة ليُصبح مُعلِّمة، تأخذ بيدها — بوضوح مُبكر وقوّة داخلية لافتة — مصير إخوتها.

حقبة من تضحيات هائلة وخيارات صعبة — لكنها أيضاً حقبة شخصية لا تنكسر، أرسّت أساسات عائلتنا.

طقوس تفيض روحانية

رغم المحن، عرفت جدتي كيف تحفظ التوازن — الروحي بقدر تلك التي (chamane) العائلي. كانت أيضاً تحمل دور الشامانة كانت تقودنا خُفاة الأقدام عبر موقد الجمر القائم في قلب مطبخها، وسط لآفات البخور، وهي تُتمتم بسُور من القرآن. ذلك الطقس — المقصود به طرد العين الشريرة، أو المنجز مجرد احتراز — كان شهادة على تقواها وعلى تشبُّثها العميق بالتقاليد.

كلّ صباح، كانت تجمع العائلة في صالونها الفسيح. كنّا نصل غالباً بتياب النوم، تجذبنا رائحة قهوتها الدافئة. كانت تُعدّ نُسختين: قهوة تركية مُركّزة، وقهوة فوريّة — المُفضّلة عندها، وعند فيليسيّتاس (Felicita)، كُنَّتها الألمانِيّة التي كانت تُناديها « فيه » (Fé)، زوجة خالي المحبوبة. هذا الطقس الصباحي، البسيط والدافئ، كان يقول بصمته انْتِلاف عائلةٍ لكلِّ فيها مكانه.

القَطْرَةُ والمُحِيط

في الساعات المُتاحة، كانت تُكشف موهبةً أخرى: الخياطة، التي تَخُصُّ بها أحفادها وحدهم. كانت أُمِّي تَلْعَبُ دورَ المُصَمِّمةِ. مُستَلْهِمةً من الواجهات الأنيقة في شارع الحَمراء، كانت تُرسم خَطَّاطاتٍ سريعة تَعْهَدُ بها إلى جدّتي. وكانتا معاً تَذْهَبانِ إلى سوق بيروت العتيق لاختيار الأقمشة والأزرار والسحابات، تُتَوَجَّانِ جولتهما بجلسات مساومةٍ شَرْقِيَّةٍ أصيلة — تُنتهي عادةً حول فَنْجان قهوةٍ يُقَدِّمه البائع الراضي.

كنتُ الأصغر، والوحيد المسموح له بمرافقتهما في هذه النُزهات. كنتُ أراقب في صمت استراتيجيّاتهما الدقيقة لانتزاع أفضل الأسعار، مُتعلِّماً فَنَّ المساومة الرقيق — لا سيّما تلك اللحظة الحرجة حين كانتا تتظاهران باللامبالاة وتُؤَلِّيان الظهر، لِتُدْفعا البائع إلى التسليم. بعد تلك اللحظات المُكثَّفة، كنّا نَمْنَحُ أنفسنا استراحةً شهيّة: كأسَ جَلَّاب، أو كوكتيلَ فواكه طازجة. كأسِي أنا: دائماً فراولة وموز، أَتَدَوِّقه تحت نظرة أُمِّي الحانية وابتسامتها.

إرثٌ من الحَنانِ والتوريث

ما وراء هذه الأفراح المشتركة، كانت جدّتي تَدَّخِرُ لي لحظاتٍ من جودةٍ أكثر نُدرة. أحياناً، حين كانت تَجِدُ فُسْحَةً في جدولها المزدحم، كانت تأتي لِثَوْقِظَنِي بِتَدْلِيكِ خفيف على ظهري، تُسَكِّنُ ألامَ جَنْفِي. يداها، الخفيفتان المليئتان بالحَنانِ، كانتا تَسْتَقْرَآنِ عَلَيَّ كَكَفِّي قِطًّا،

تَنْقَلانَ حُبًّا بلا شرط. ما إنْ تَنْتَهِيَ اللَّفْتَةُ كُنْتُ أَقْبَلُ يَدَهَا امْتِنَانًا —
وفي اندفاعٍ عُذُوبَةٍ، كانت تَقْلِبُ يَدَيَّ لِثُودِعَ فِيهَا قُبْلَةً.
في تلكَ اللحظاتِ تماماً كانت تُهَمِّسُ لي بالسِّرِّ. سِرَّ الجَدِّ الذي لا
يُنْطَقُ اسْمُهُ. سِرَّ الشَّبَةِ. سِرَّ ما كانَ عَلَيَّ إِلَّا أَبُوْح بهِ لأحد.
حَفِظْتُهُ. ولا أزالُ أَحْفَظُهُ.

ظَمًا إِلَى الْمَعْرِفَةِ، فِي وَجْهِ الْعَوَاصِفِ

رغم ثِقَلِ الابتلاءاتِ العائليَّةِ، لم تَتَخَلَّ أُمِّي يوماً عن رَغْبَتِها في
التَّعَلُّمِ. بعد أن رَبَّتْ أولادها الأربعة، وَجَدَتِ الشَّجَاعَةَ لاسْتِنْفَافِ
دِرَاسَتِها بَيْنَما كُنْتُ ما أزالُ صَغِيرًا. وفيما بعد، في خِصَمِ الحَرْبِ
اللِّبْنَانِيَّةِ — وأولادها مُبْعَثَرُونَ في أَصْقااعِ الأَرْضِ — حَوَّلَتْ
وَحْدَتِها إلى إِنْجَازِ، تُتَابِعُ دِرَاساتِها العُلَيَّا بِإِصْراهِ لا يَلِينِ. وقد
تَوَجَّهَتْ هَذا الِاتِّزاَمَ بِبَيْلِ شَهادَةِ الدِّكْتوراهِ. بِرِهانٍ ساطِعٍ على أَنَّهُ لَمْ
يَقُتِ الوَقْتُ أَبْداً لِتَحْقِيقِ أعمقِ الطُّمُوحاتِ.

قَاماتٌ مِنْ شَجَاعَةٍ نَسائِيَّةٍ لا يَطْوِيها زَمَنٌ

مَسارُ أُمِّي وَجَدَتِي يَظَلُّ بِالنَّسْبَةِ لي مَنبَعِ إلهامٍ لا يَنْصَبُ. طَرِيقَتُهُما
في عُبورِ المِحْنةِ بِقُوَّةٍ هادئةٍ شَكَّلَتْ في العُمقِ التَّزاَمِي بِحقوقِ
النِّساءِ.

القَطْرَةُ والمُحِيط

هذه الذكريات تَسُدُّني كلَّ يوم. تَحْفَظُ حَيًّا حُضُورَ هاتين المرأتين الاستثنائيتين، اللتين عَرَفْنَا كيف تُؤَلِّفَانِ بَيْنَ حُبِّ لا يَبْلَى وشجاعةٍ صافية. سَبَقَيَانِ دائماً، في عَيْنَيَّ، الكرامةَ والصلابةَ مُجَسَّدَتَيْنِ.

الجدور الأبوية

امتنانٌ غريبٌ

كان عشاءٌ في الطابق الأخير من معهد العالم العربي في باريس. لم تَكُنِ السهرة استثنائيةً في شيء — حتى تلك اللحظة التي اقترب فيها نادلٌ لبنانيٌّ من طاولتنا بِتردُّدٍ استرعى انتباهي. بدا مُحَرَّجاً، مُتَأَثِّراً، وكأنَّه يَجْمَعُ شجاعته منذ بُرْهة.

« عَفْوَاً، سيِّدَ بَيِّضُونَ... »

تَوَقَّفَ لحظةً.

« بِتَعْرِفَ شخصَ إسمو ديب بَيِّضُونَ؟ »

لَمَّا أَجَبْتُهُ بنعم — وأنَّ ديب هو جدِّي — تَغَيَّرَ شيءٌ في وجهه. شرَعَ يَروي بصوتٍ خافتٍ زمناً بعيداً، حين تَلَقَّتْ أمُّه، الأرملةُ المُعْدِمةُ، عَوناً من رجلٍ اسمه ديب بَيِّضُونَ. لم يُضِفْ تفصيلاً واحداً. لم يَكُنْ بحاجة. بدلَ ذلك، أَمَرَ بأن يُقَدَّمَ إلى طاولتنا طَبَقٌ من الفاكهة اللبنانية بِفَخامةٍ تَلِيْقُ بمأدبةٍ ملكية، مَصْحوباً بكأسِ كونياك

من العتيق — أفتة امتنانٍ على درجةٍ من الصدق جعلت الطاولة
بأكملها تلوذ بالصمت.

في طريق العودة تلك الليلة، كنتُ أفكرُ بِجَدِّي. بذلك الصِنْفِ من
الرجال الذين يتركون أثراً من هذا النوع — لا في الأنصاب ولا
في عناوين الصُحف، بل في الذاكرة الحميمة الدائمة لأناسٍ ربّما لم
يُلاقهم سوى مرّةٍ واحدة.

ديب بيضون. مختارُ الأشرفيّة سابقاً في بيروت. جنديٌّ، صناعيٌّ،
ربُّ سلالة. رجلٌ كان كَرَمُه بلا حدودٍ يُلهم بقدرٍ ما يُثير الاستياء،
أحياناً، عند أحبِّ الناس إليه.

هذه قصّته. وهي، من جوانب كثيرة، قصّتي أنا.

وجه آخر من الأصول

من جهة الأب، كان جدِّي ديب يُجسّدُ بعداً قوياً ورمزياً في جذورنا
العائليّة. جنديٌّ في الجيش العثمانيّ، كرّس حياته بعد الحرب
العالميّة الأولى لبناء ما لا يُمكن وصفه إلّا بأنّه إمبراطوريّةٌ
صناعيّةٌ صغيرة.

في السادسة عشرة من عمره، أُجبرَ على الالتحاق بالقوَّات
العثمانيّة، تاركاً وراءه أمّاً وأختاً بلا حماية. غير أنّ شيئاً فيه رَفَضَ
أن يَنكسر. مدفوعاً برويّةٍ جريئةٍ وروح ريادةٍ عميقة، انتهى إلى
تأسيس مصنعين للنسيج ومعملٍ للتبغ، أطلقَ عليه رمزياً اسم

القَطْرَةُ والمُحِيط

«الوَحدة». كان هذا الاسم يَحْمِلُ مُثْلُهُ العُلْيَا في التضامن والقوة في وجه الشدائد. كما جعلَ منه هَدَفًا.

في ظلّ الإدارة الفرنسيّة — الحديثة العهد بالاستقرار في المنطقة بعد سقوط الإمبراطوريّة العثمانيّة وحليفاتها ألمانيا — فُسِرَ التزامه بـ«الوَحدة» على أنّه فعلٌ تخريبيّ. رأت السُلطات فيه دعوةً إلى التمرد، وتهديداً في مناخٍ لا يزال مُتَزَعِزاً، فَحَكَمَت عليه بثلاثين يوماً من الاعتقال.

كان في السابعة والعشرين حين خرَجَ.

بُعِيد الإفراج عنه، خَلَدَ ديب هذه الواقعة في استوديو تصوير. في تلك الصورة، التي صارت معلماً في تاريخ عائلتنا، يظهر جالساً، يَعْتَمِر طربوشه، يَرْتَدِي جَلَابِيَّةً بَأَنَاقَةٍ بسيطة. نظرته، الهادئة الواثقة، تَخْتَرِقُ العدسة بكثافة صامته. شارباه المُلتَقَان بعناية يُضَيِّفَان إلى وقاره. في تلك الهيئة يَجْتَمِعُ سلامٌ داخليٌّ لا يُفْتَلَعُ، ووفاءٌ لا يَتَزَعَزَعُ لِمَبَادئِهِ. رجلٌ سُجِنَ من أجل أفكاره — ما كان يَتَوَيَّ قَطُّ أن يكون أحداً سواه.

دلالة اسم ديب

وُلِدَ في عائلةٍ كانت قد طُبِعَت بِالْفَقْد — كان والداه قد دفنا طفلين قبله — فاخْتِيرَ اسمُهُ، ديب، الذي يعني الذئب في العربيّة، كَنَعْوِيذَةٍ ضدَّ النَحْس. ووفاءٌ لهذه الرمزيّة، تَحَدَّى كلَّ التوقُّعات وعاش ما

يَقْرَب من القرن، ليصير رَكِيزَةً سُلَالَةٍ، مُجَسِّدًا حَتَّى النِّهَايَةِ تِلْكَ
القُوَّةَ وَالْحِمَايَةَ اللَّئِيْنِ كَانَ اسْمُهُ يُوحِي بِهِمَا.

كَرَمٌ خَارِجُ الْمَأْلُوفِ

غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ الْقُوَّةَ كَانَتْ تُعَبِّرُ عَنْ نَفْسِهَا أَيْضًا بِطَرَائِقَ كَانَتْ تُحَيِّرُ
— وَأَحْيَانًا تُغَيِّظُ — عَائِلَتَهُ نَفْسَهَا.

كَانَ دَيْبٌ رَجُلٌ كَرَمٌ ائْتَدَاعِيٌّ، يَكَادُ يَكُونُ مَسْرَحِيًّا. يُعْطِي بِلَا
حِسَابٍ، بِحُرِّيَّةٍ، وَغَالِبًا لِأَنَاسٍ لَا حَقَّ لَهُمْ فِي ثَرَوَتِهِ. كَانَتْ نِقَاشَاتُ
حَامِيَةٍ تَنْشِبُ بَيْنَ أَبِي وَأَخِيهِ وَسَائِرِ أَفْرَادِ الْعَائِلَةِ حَوْلَ مَا اعْتَبَرُوهُ
تَبْدِيدًا لِلْأَمْوَالِ. عَادَتُهُ فِي التَّوْزِيْعِ عَلَى غَرْبَاءٍ أَوْ عَلَى عَابِرِينَ
كَانَتْ تَصْطَدِمُ بِغُفٍّ مَعَ طُمُوحَاتِ الَّذِينَ تَمَنَّوْا أَنْ تَعُودَ نَجَاحَاتُهُ
بِالنَّفْعِ عَلَى الدَّرِيَّةِ.

وذَاكَ يَوْمٍ، حِينَ عَاتَبَهُ أَبِي عَلَى هَذَا الْإِفْرَاطِ، أَجَابَ دَيْبٌ بِهَدْوٍ
مَمْزُوجٍ بِسُلْطَةٍ:

« أَنَا كَوْنْتُ ثَرَوْتِي لِحَالِي، مَا حَدَا عَطَانِي يَا هَا. إِذَا بَدَّكَ تَعْمَلُ مِثْلِي،
اَشْتَغَلْ وَابْنِيهَا، بَدَلِ مَا تَنْطَرُ وَرَتَةَ أَبُوكِ. »

قَاطِعٌ. صَادِقٌ. وَصَارُمٌ صِرَامَةً مُطْلَقَةً.

لَمْ يَكُنْ يُؤْمِنُ لَا بِالتَّوْرِيْثِ السَّلْبِيِّ وَلَا بِالْاِتِّكَالِ. كَانَ يُؤْمِنُ فَقَطْ
بِالْجُهْدِ الشَّخْصِيِّ، بِقُدْرَةِ كُلِّ امْرِئٍ عَلَى صِيَاغَةِ مَصِيْرِهِ. سِوَاءِ

القَطْرَةُ وَالْمُحِيطُ

شاطرَه المرءُ فلسفَتَه أو لم يُشاطرها، كان مُستحيلاً ألاَّ يحترم ذلك
الوضوحَ الذي حمَّلها به.

لَفْتَةُ كَرَمٍ فِي النَّاعِمَةِ

تَحكي حكايةً تَناقَلُها الأجيالُ في العائلة الرجلَ كُلَّه. خلال زيارةٍ
لمصانعه وأراضيه على شاطئِ النَّاعِمَةِ، أُعجِبَ نائبُ شابٍّ —
سَيُصبح رئيسَ وزراءٍ لاحقاً — بِجَمالِ قطعةِ أرض. وفاءً لطبعه،
أهداها له ديبٌ في اللحظة نفسها. بلا أيِّ مُداولة. بالنسبة له، لم يَكُنْ
ذلك سوى تعبيرٍ عن نُبلِ الروح — لا حساباً لمصلحة.

إرثٌ شخصيٌّ

في التاسعة من عمري، رأيتُ هذا الكَرَمَ بِأَمِّ عَيْنِي — في صورةٍ
متواضعةٍ إلى حدٍّ ظَلَمْتُ معها ثُرافقتي منذ ذلك الحين.
كنتُ أراقبه يَقُصُّ أظافره بِمِقْلَمَةٍ أَظافر صينيَّةٍ صغيرة. كنتُ أَتأملُه
بتلك الفِتنة التي يَدخُرُها الأطفالُ لأبسط الأشياء. بلا كلمة، مَدَّ يَدَه
بها إليّ.

« خدّها. »

تَرَدَّدْتُ. أَصَرَ. وَافَقْتُ بِحَجَلٍ.

ما لم أَكُنْ أَستطيع أن أعرفه آنذاك، هو أَنِّي لن أَستخدم غيرها أبداً.
منذ ما يَزِيدُ على خمسين سنة، هذه المِقْلَمَةُ الصغيرة هي التي
أُسيكها في كُلِّ مرَّة — وبعد كُلِّ هذا الوقت، لا تزال تُقُصُّ تماماً

كما كانت يوم وَضَعَهَا في يدي. لا أعرف كيف أُفسِّر ذلك. ولستُ على يقينٍ من حاجتي إلى تفسيره.

في كلِّ مرّةٍ أستخدمها، أتذكره. لا في المصانع، ولا في قِطْع الأرض المُهداة باندفاعِ قلب، ولا في الوزراء الذين حضروا عُرْسَ ابنه — بل في هذا: مِقْلَمَةُ أَظَافِر صِينِيَّة صغيرة، انتَقَلَتْ من يدِ رجلٍ مُسَيِّ إلى يدِ طفل، في مكانٍ ما في بداية السبعينيّات. لَفْتَةٌ من البساطة بحيث كان يُمكن ألاَّ تُعني شيئاً. عوضَ ذلك، نَجَتْ من كلِّ شيءٍ تقريباً امتلكته يوماً.

هذا كان ديب أيضاً. رجلٌ يُعطي ثرواتٍ بالخِفة نفسها التي يَمُدُّ بها مِقْلَمَةُ أَظَافِر إلى طفل — كأنَّ لا شيء يستحقُّ فعلاً أن يُحتَفَظ به، ما دام آخِرُ قد يَرغب فيه. ومع ذلك، عبر خمسين سنة وكلِّ ما تَغَيَّر فيها، هذا الشيءُ الصغير جداً، هو وحده بقي.

الزواجُ مَسْرَحاً للسلطة

كان هذا الكَرَم يَتَجَلَّى أيضاً في النطاق العائليّ — لا سيّما في زواج والديّ.

كانت أُمِّي، الكَنَّة المُفَضَّلَة عند ديب، تَقوم أحياناً بدور الوسيطة لِئَلَّا بعض الامتيازات داخل العشيرة. ظَلَّت رواية الخُطبة والاحتفال راسخةً في ذاكرة العائلة: شخصيّاتٌ بارزة — وزراء ونواب في

القَطْرَةُ والمُحِيط

الخدمة — حضروا المناسبة. بالنسبة لِجَدِّي، كان لِلْحَدَثِ ثَقْلٌ سياسيٌّ بِقَدْرٍ ما له من بُعْدٍ شخصيٍّ.

كانت أُمِّي تَسْتَعِيدُ بِعَاطِفَةٍ جَيَّاشَةٍ لِحِظَةٍ دَخُولِهَا عَلَى ذِرَاعِ أَبِي، عَابِرَةً مَمَرًا شَرَفِيًّا مِنَ الْكَشَافَةِ الرَّافِعِينَ سَيُوفَهُمْ، تَحْتَ وَقَعِ التَّصْفِيقِ الْحَارِّ وَانْطِلَاقِ فِرْقَتَيْنِ مُوسِيقِيَّتَيْنِ فِي آنٍ وَاحِدٍ — إِحْدَاهُمَا بِنِغْمَاتٍ شَرْقِيَّةٍ وَالْأُخْرَى بِنِغْمَاتٍ غَرْبِيَّةٍ — تَعْرِفَانِ مَعًا فِي انْسِجَامٍ أَسْرٍ.

جُرْأَةٌ وَعَزِيمَةٌ

غَيْرَ أَنَّ مَا طَبَعَ تِلْكَ الْمَرْحَلَةَ بِأَكْثَرِ مِنْ سِوَاهَا هُوَ حَدَاثَةُ أُمِّي وَجُرْأَتُهَا. رَغْمَ اعْتِرَاضَاتِ جَدَّتِي لِأَبِي الشَّدِيدَةِ — وَهِيَ مُؤْمَنَةٌ وَرِعَةٌ، مُحَافِظَةٌ إِلَى أَبْعَدِ حَدٍّ — نَجَحَتْ أُمِّي فِي إِقْنَاعِ دَيْبٍ بِالسَّمَاكِ لِبَنَاتِهِ بِخَلْعِ الْحِجَابِ. قَرَارٌ نَادِرٌ فِي تِلْكَ الْحَقْبَةِ. وَرَمَزٌ قَوِيٌّ لِلتَّحَرُّرِ وَالتَّغْيِيرِ.

غَيْرَ أَنَّ هَذَا الْقَرَارَ كَانَ يَقُولُ الْكَثِيرَ أَيْضًا عَنْ دَيْبٍ نَفْسِهِ. ذَلِكَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ يُغْنِي «أَمَانَ دَكْتُور» فِي الْحَنِينِ إِلَى عَالَمِ عَثْمَانِيٍّ غَابِرٍ، الَّذِي كَانَ يَسَبُّ لِإِخْرَاجِ زَوْجَتِهِ التَّقِيَّةِ عَنْ طُورِهَا، الَّذِي كَانَ يُوزَّعُ بِلا حِسَابٍ عَلَى الْغُرَبَاءِ — كَانَ هَذَا الرَّجُلُ قَادِرًا أَيْضًا عَلَى أَنْ يُصْغِيَ إِلَى كَنَّةٍ شَابَّةٍ فِي الْعَشْرِينَ تُدَافِعُ عَنْ قَضِيَّةِ بَنَاتِهِ. كَانَ قَدْ اخْتَارَ حُبًّا أَوْلَادَهُ عَلَى يَقِينَاتِ بَيْتِهِ.

كانت تلك، رُبّما، أحدثَ لَفَتَاتِه — لَفَنَةُ رجلٍ حُرٍّ، قادرٍ على الوقوف بين عالمين دون أن يُنكر أيّاً منهما.

بين الإيمان والكُفر

لم يكن ديب رجلَ أنصافِ الحلول — ولا في مكانٍ تجلّى ذلك بأوضح ممّا تجلّى في علاقته بالدين.

نوباتُ غضبه وكُفْرُه كانت تدفع جدّي إلى اليأس. كانت نقيّة، المسبحةُ في يدها، تُعاتبه:

« يا ديب... حاج تكفّر، حاج! »

بالنسبة لها، كان ذلك الكُفر رجساً — أشدّ احتمالاً ممّا كانت تتحمّله من خياناته لها، وإن كانت معروفةً عند الجميع، لكنّها كانت تستقبلها بمزيجٍ من التسليم واليأس الصامت. وكان ديب، كأنّه يدفعها إلى أقصاها، يزيد في الاندفاع، يُطلق بضعة ألفاظٍ نارية، يرميها في الهواء كشرر.

سجالاتُهما، شبهُ المسرحيّة، كانت تتردّد بين الجدران كيزالِ عُقول — حيث تتحوّل المُواجهة إلى فنّ. كانت تقول مزيجاً فريداً، يكاد يكون كيميائياً، من تَواطُؤٍ لاذعٍ واختلافٍ عميق: هو، المُتقلّب الحُرّ حتى حدّ الصفاقة؛ وهي، امرأةٌ من قرنٍ آخر، مُنقّفة، تتكلّم التركيّة برشاقة، نقيّة راسخة في قناعاتها. هو، العائدُ من الجبهة على ظهر فرَس، فقيرٌ لكنّه شامخ؛ وهي، سيّدة الصمت والتقاليد. لم يكن

القَطْرَةُ وَالْمُحِيطُ

اتَّحَدَهُمَا قِصَّةَ حُبٍّ، بَلْ عَهْدًا ضِمْنِيًّا بَيْنَ مَمْلَكَتَيْنِ — تحالفتْ هَشَّ،
يَقِفُ فِيهِ الْحُبُّ عَلَى مَسَافَةٍ مُحْتَرَمَةٍ، يَتَأَرْجَحُ كَفَانُوسٍ بَيْنَ الظِّلِّ
وَالنَّارِ.

حكايات ديب الأسرة

رغم أنَّ ذاكرته كانت تتعثرُ مع التقدُّم في السنِّ، كان ديب يروي بلا
كلَّل حكايةً عسكريَّةً واحدة. خلال مناورة، أسقطَ نِسْراً مَهيباً
برصاصةٍ واحدة من بندقيته، دون أن يتلقَّى أمراً بذلك من قائده
الألمانيِّ. عُوتِبَ في البداية، ثم نال الثناء على براعته.
كنتُ أصغي في صمت — رغم التكرار العديد — مُتبادلاً مع أبي
نظراتٍ متواطئة. وَهَنَ ديب، ومع ذلك كان يستمرُّ، عبر رواياته،
في تمرير الرابطة الثمينة بين الأجيال.

أغنية من ماضٍ مضى

في النُزهات العائليَّة، كان ديب يُغنِّي «آمان دكتور» — ذِكرى من
سنوات الحرب، بالتركية:

Aman doktor canım kuzum doktor

Derdime bir çare

Çaresiz dertlere düştüm

Doktor bana bir çare

آمان دكتور، يا طبيبي العزيز،
ابحث لي عن دواءٍ لَوَجَعِي.
وَقَعْتُ في أوجاعٍ لا شفاءَ لها،
يا دكتور، أعطني علاجاً.

كان صوته يَرتجف أحياناً، مُثَقَّلاً بالذكريات. ذلك اللحن — الحزين
الجميل — كان يَمُنح أبهَجَ اللحظات نَبْرَةً من العُمق.

تحيةٌ إلى جدِّي

وأنا أَسْتعيد هذه الذكريات، أشعر بامتنانٍ عميق.
جدِّي ديب، حُضورُك لا يَزَال يَهْتَرِّ في حكاياتنا وفي صَمَتنا. شُكراً
لِغِنَى إرثك، وَلِصَفَاءِ قِيَمِكَ، وَلِذَلِكَ الحُبِّ الصامت الذي عَرَفْتَ
كيف تُورِّثه بكلِّ هذا الوَقار.
لا تَزَال تلك المِقْلَمَةُ معي.



الفصل الثاني

ما باح به قلبُها

بيروت، ١٩٩٥ — وداعي لأمي

الكلمات الأخيرة

كانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل حين وصلتُ إلى المستشفى. أختي كانت تنتظرني في المطار، والإلحاحُ في صوتها: « ماما ناظرتك — عجل. » كنتُ عائداً من فرنسا، حيث اضطررتُ إلى تجديد بطاقة إقامتي — الترامُ يستحيل تأجيله، رغم قسوة اللحظة. خلال غيابي، كانت قد انصلت بي بلا انقطاع. كنتُ أعرف ما الذي يعنيه ذلك.

في غرفتها، وجدتها ممددة، نصف وجهها مختفٍ تحت قناع الأكسجين. جسدها كان قد بدا أكثر هشاشةً خلال الأسابيع التي غبتُ فيها. ومع ذلك — حالما رأتني، تغيّر شيءٌ في وجهها. ابتسامة بالكاد مرسومة. حركةٌ تحت القناع، كما لو كانت تبحث عن الكلام.

جلستُ برفقٍ قُربها. رفعتُ القناع بحذرٍ وطلبتُ منها أن تُعيد ما قالت. بصوتٍ يكاد لا يُسمع، همست:

« أنا عم ببوسك. »

تلك الكلمات هزّتني في الأعماق. غمرتها بالقبّل، مليءً بامتنانٍ لا أجد له كلمات. تلك اللحظة الحميمة، المُعلّقة — المَسروقة من حافة كل شيء — كانت تخصّها وحدها. حتى هناك، حتى في ذلك المكان، كانت لا تزال تُعطي.

في صباح اليوم التالي، نحو الساعة الثامنة، أسلمتُ روحها بسلام.

القَطْرَةُ والمُحِيط

حين أَخَذْتُ يدها للمرّة الأخيرة — باردةً رغم حَرِّ الصيف —
أَدْرَكْتُ كاملاً ثِقَلَ ما عَشَّته للتَّوَّ. انْهَمَرَت الدموعُ بلا قَيْدٍ. الحقيقةُ
كانت تُصَفِّعني بِكُلِّ ثِقَلها: أُمِّي قد عَبَرَت العَنَبَةَ الأخيرة.
هذه هي قِصَّة الطريق الذي قَطَعْنَهُ لِتَصِلَ إلى هناك — وقِصَّة كلِّ
ما اخْتَارَت أَنْ تَفْعَلَهُ بالوقت الذي تَبَقَّى لها.

البَصِمَاتُ التي تَبَقَّى

قبل المرض بكثير، كانت كلماتها قد شَكَّلَتني بِطُرُقٍ لم أَكُنْ قد بَدَأْتُ
أَفْهَمُهَا إلا حديثاً.

كُنَّا في بداية تسعينيات القرن العشرين. كُنْتُ قد سُرَّحْتُ لِتَوَي من
عملي لأسبابٍ اِقْتِصادِيَّةٍ — ضربةٌ موجعة، خاصَّةً وأنَّ طموحاتي
المهنيَّة كانت تبدو لي بعيدة، رغم أنَّ مشروع تَخَرُّجي، عملاً من
خَرْفِ ليموج، كان قد اقْتَنَاه «متحف أدريان دوبوشيه الوطني في
ليموج» (Musée national Adrien-Dubouché). عالمُ
التصميم كان قد تَجَمَّد في أعقاب النِزاعات الإقليمِيَّة، وكُنْتُ أَشعر
بذلك شخصيَّاً، عميقاً.

ذات يوم، وأنا أَشاركها شكوكي، نَظَرْتُ إليَّ بتلك العاطفة الخاصَّة
التي كانت تَدَّخِرُهَا لِلْحَضَاتِ ذاتِ شَأْنٍ، وقالت لي:

«يا ماما حبيبي، بهالحياة، أهُمَّ شَيءٌ هو الأثر يَلِي بِبَيْتِركو كلِّ واحدٍ
مَنَّا وراه. المصاري بتروح وبتجي — بس هالأشياء يَلِي بتبقى من
بعد ما نروح، أهُمَّ بكثير.»

بساطةٌ خَلَّابة. ومع ذلك، صارت هذه الكلمات مَناراً لي في أَحْلَاكِ
ساعاتي. كانت تُذَكِّرُني بأنَّ الجَوْهر لا يَكْمُنُ في المَكاسِبِ المادِّيَّةِ،
بل في البَصْمَةِ التي نَتْرُكُها على الآخرين — عبر عملنا، وعبر
قِيَمِنَا، وعبر إبداعنا. وهذه الرؤية بالذات هي التي دَفَعَتْنِي، بعد
سنواتٍ طويلة، نحو مشروعٍ قادِرٍ على عبور الأجيال. لكن هذه
القِصَّة، سَأروِيها في حينها.

الإفصاحُ عن المرض

الخبرُ، حين وَقَعَ، جاء كَجِدَارٍ مَنيع.

سرطانٌ في مرحلته النهائية. انتشر في جسدها كله انطلاقاً من الرئتين — وهي التي لم تُدخّن سيجارةً واحدة طوال حياتها. كانت الصدمة كاملة. غادرت باريس فوراً لِألحق بها، مُحطّماً، عاجزاً عن تصديق ما أُعلن لي للتوّ.

حين وصلتُ إلى بيروت، بعد بضعة أيّامٍ من أوّل أيّار الذي سقط فيه الخبر، كانت تَبْتسم. مُشرقة. على سَجِيّتها، كَعَهْدِها دائماً. مُستحيلٌ أن نَتَخَيَّلَ، ولو لِلْحظّة، أنّها على شفير الموت. كنتُ أحمل لها هدايا من كلّ نوع، وكأنتها وداع. سرّها بشكلٍ خاصّ صندلٌ من « مينيلي » (Minelli) — أثنى عليه طبيبُها نفسه، إذ تعرّف على الطراز ذاته الذي كانت زوجته قد ألحّت عليه أن يشتريه خلال رحلةٍ إلى إيطاليا. قالت أمّي، بِفخر: « هيدا جابلي ياه إيني بباريس. »

آخِرُ لحظاتِ الكرامة

مع تقدّم المرض وتدهور حالتها، باتت العلامات الجسديّة لمعرّكتها لا تُقبل الإنكار. كان العلاجُ الكيميائيّ قد جَعَلها تَفقد كلّ شعرها — مُحنةٌ كان كثيرون سيّسعون إلى إخفائها. لكن ليس هي. وفاءً لِكبريائها وكرامتها، كانت ترفض رَفصاً قاطعاً ارتداء غِطاءٍ رأس، مُعلّنةً بنّبات:

« ما بَدّي شي غ راسي. خَلّي الجيران يشوفوني. ما حدا عندو خيمة زرقا فوق راسو. »

من حولها، اختارت العائلة الصمت. كلّهم كانوا يكذبون، بأفضل النوايا:

« حين تشفين، سنُسافر، سنُخرج معاً... »

بالنسبة لي، كانت هذه المُسرّحيّة لا تُحتمل. مهما كانت الحقيقة مُؤلمة، كان من حقّها أن تُعرف — أن تختار كيف تُريد أن تعيش لحظاتها الأخيرة. كنتُ الوحيد العاجز عن النّظر في عينيها وأنا أُنظّاهر.

الوصية الأخيرة

ذات ليلة، وأنا أستلقي في السرير المجاور لها، في غرفتها الخاصة في المستشفى، استيقظت نحو الساعة الثالثة فجراً، وابتسامة مُشرقة تُضيء وجهها، مُستعدة لفتح حوار. إذ رأيت أن ذهنها قد بقي مُتقدماً رغم هشاشة جسدها، وجَّهت حديثنا برفقٍ نحو الحياة، والموت، والمصير. شيئاً فشيئاً، أدركتُ.

تجمدت ابتسامتها. اغتممت نظرتها. دمعة واحدة سالت على خدها. بعد صمتٍ طويل، أمرتني بِسلطةٍ بأن أحضر ما أكتب به. بهدوءٍ يَشعُّ مهابة، أملت وصيتها بينما كنتُ أسارع إلى تدوين كلِّ شيء في مُفكرة « فيلوفاكس » (Filofax)، أجاهد لأساير إيقاعها. كانت قد قرَّرت أن تجعّلي المُنفذ — كاسرةً بذلك التقليد الذي كان ينسب هذه المسؤولية عادةً للابن الأكبر. بوصفي الأصغر، أعزب وبلا أولاد، كنتُ في عينيها الأكثرُ قُدرةً على إنجاز هذه المهمة الدقيقة.

في صباح اليوم التالي، الساعة الثامنة والنصف بالضبط — كما طُلّبت مني — توجَّهتُ إلى الكاتب العدل لِتوثيق وصيتها.

العَبءُ العائلي

بعدَ قليل، وصَلتُ أختاي وأخي. أخي، الجريحُ في كبريائه، عبَّر عن غضبه لأنَّه أقصِي. بِنعومةٍ لا حدود لها، شرَّحت له بهدوءٍ أنَّه يعيش في جزيرة موريشيوس مع عائلته، وأنَّ له طِفْلَيْن وثالثاً في الطريق، وأنَّ حضوره الجسديَّ في مثل هذا الشأن لم يكن ممكناً. في السنوات التي تلت، اضطررتُ إلى السفر مرَّتين في السنة، طوالَ ثلاث سنواتٍ مُتتالية، لِأثبت إقامتي المُتواصلة في الشَّقة العائليَّة — إجراءً جوهريَّ لِحفظ حقِّ أختي في الإقامة فيها. وإن كانت هذه المسؤولية ذاتُ معنى، فقد تبيَّن أيضاً أنَّها مُرهقةٌ في العمق. التَّنقُّلات المُتواصلة والوقتُ المُكرَّس لِإجراءات أبعدتني طويلاً عن مسيرتي المهنية، حتى زواج أختي من جديد.

تلك الحقبة وسَمَّها إنهاكٌ عميق — معنويٌّ ومالي. الجهودُ المُتواصلة قادتني في النهاية إلى إفلاسٍ شخصيٍّ، والفراغُ الذي

تَرَكَهُ خَسَارُهُ أُمِّي أَغْرَقَ حَيَاتِي فِي كَابَةِ لَا سَبَرَ لَهَا. أَنَا الَّذِي كُنْتُ فِي مَا مَضَى أَنْبَهَرُ بِالْأَوْبَرَا وَالْمَتَاحِفِ وَالْأَسْفَارِ، اكْتَشَفْتُ فَجَاءً أَنَّ كُلَّ شَعْفِي قَدْ فَقَدَ بَرِيقَهُ. اسْتَقَرَّ الْاِكْتِنَابُ، يَطْلُبُ جُرْعَاتِ قُصُوى مِنْ « بَرُوزَاك » (Prozac) و« لِكُسُومِيل » (Lexomil) لِلْحِفَافِ عَلَى مَا يُشْبِهُ التَّوْازُنَ.

تَطْهِيرُ الْأَرْوَاحِ

لَكِنْ فِي أَسَابِيعِهَا الْأَخِيرَةِ، أَقْدَمَتِ أُمِّي عَلَى شَيْءٍ اسْتِثْنَائِيٍّ. كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَرْحَلَ خَفِيفَةَ الْقَلْبِ — بِلَا أَحْقَادٍ، بِلَا أَسْرَارٍ. حَدَّثْتَنِي عَنِ الْإِسْوَارَةِ الذَّهَبِيَّةِ الْمَجْدُولَةِ، الَّتِي أَهْدَاهَا إِيَّاهَا أَبُوهَا فَوْزِي لِنَجَاحِهَا فِي الْبِكَالُورِيَا، وَالتِّي صُوِّدِرَتْ مِنْهَا ظُلْمًا فِي طُفُولَتِهَا. إِعَادْتُهَا إِلَى صَاحِبَتِهَا الشَّرْعِيَّةِ كَانَتْ قَدْ صَارَتْ فَعْلٌ إِنْصَافٍ — مُصَالِحَةٌ صَامِتَةٌ بَيْنَ الْأُمِّ وَالْابْنَةِ. ذَكَرَتْ زَوَاجَهَا الْمُدَبِّرَ. الْأَحْلَامَ الْمُحَطَّمَةَ، حُبَّ الشَّبَابِ الَّذِي ضَحَّتْ بِهِ، التَّنَازُلَاتِ الَّتِي قَبِلَتْهَا صَامِتَةً. لَكِنَّا ذَكَرْتُ أَيْضًا فُورَتَهَا عَلَى الْمَغْفِرَةِ — عَلَى الْحُبِّ رَغْمَ الْجِرَاحِ. كَانَتْ بَوْحًا ذَا جَمَالٍ مُؤَثِّرٍ، مُضِيئًا بِإِنْسَانِيَّةٍ. لَمْ تَكُنْ تُفَرِّغُ مَا فِيهَا ضَعْفًا. كَانَتْ تُكْمَلُ — دُونَ أَنْ تَتْرَكَ شَيْئًا نَاقِصًا، شَيْئًا غَيْرَ مُعْلَنٍ.

نُورٌ فِي الْمِحْنَةِ

أَيَّامُهَا الْأَخِيرَةِ، كَمَا أَرَادَتْهَا، كَانَتْ مَغْمُورَةً بِالْمُوسِيقَى وَالصَّلَاةِ وَالنُّورِ. أَلْحَانُ فِيرُوزِ وَالْأَغَانِي الْأَنْدَلُسِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تُحِبُّهَا تَطْفُو فِي الْبَيْتِ كَأَخْرِ نَفْسٍ لِرُوحٍ. جَارَانِ — تَلْمِيزَةٌ سَابِقَةٌ وَأَخُوهَا، عَازِفُ الْعُودِ — جَاءَ لِيُعْثِيًا وَيَعِزُّفًا لَهَا، مُتَأَثِّرِينَ بِنُبْلِهَا الْهَادِي، يُضَيِّفَانِ قَلِيلًا مِنَ الدَّفْعِ إِلَى سَاعَاتِ غُبُورِهَا. فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ بِالذَّاتِ بَدَأْتُ تُنَادِينِي بِأَكْثَرِ إِلْحَاحٍ. وَالتَّرَامُ تَجْدِيدِ بَطَاقَةِ إِقَامَتِي هُوَ مَا أَعَادَنِي إِلَى فَرَنْسَا — لِتِلْكَ الْمَرَّةِ الْأَخِيرَةِ كُلِّهَا — قَبْلَ الْعُودَةِ عِنْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ، وَغُرْفَةِ الْمُسْتَشْفَى، وَقِنَاعِ الْأَكْسَجِينِ، وَتِلْكَ الْكَلِمَاتِ الْأَخِيرَةِ الَّتِي كَانَتْ قَدْ ادَّخَرَتْهَا لِي.

تَحِيَّةٌ جَمَاعِيَّةٌ

جَنَازَتُهَا هَزَّتِ الْحَيَّ كُلَّهُ.
أَغْلَقُوا التَّجَارَ مَتَاجِرَهُمْ، مَعَ الْجَبِرَانِ رَكَبُوا سَيَّارَاتِهِمْ لِيَتَّبِعُوا
الْمَوْكَبَ. لَمْ يَطْلُبْ مِنْهُمْ أَحَدٌ شَيْئاً. جَاؤُوا، بِبَسَاطَةٍ — لِأَنَّ تِلْكَ
كَانَتْ طَرِيقَتَهُمْ فِي قَوْلِ شُكْرٍ. شُكْرًا لِلْأَطْفَالِ الَّذِينَ سَاعَدَتْهُمْ فِي
الِاتِّحَاقِ بِالْمَدَارِسِ. لِلِإِجْرَاءَاتِ الَّتِي يَسَّرَتْهَا. لِإِصْغَائِهَا، وَكَرَامَتِهَا،
وَحَنَانِهَا الصَّامِتِ الْمَزْرُوعِ مِنْ حَوْلِهَا.
أَدَّى أَهْلُ الْحَيِّ تَحِيَّةً أَخِيرَةً لِلْسَيِّتِ نَازِكٍ — كَمَا كَانَ الْجَمِيعُ
يُنَادُونَهَا.
حَتَّى فِي غِيَابِهَا، كَانَتْ أُمِّي لَا تَزَالُ تُشْعِجُ.

الفصل الثالث

جُرحُ الأب

لبنان-فرنسا-هولندا — الجرح والمغفرة

كلامٌ على الشُّرفة

بعد ساعاتٍ قليلةٍ من دفن أُمي — وجسدها ملفوفٌ بكفنٍ بسيطٍ على
السُّتَّة — وجدنا أنفسنا، أنا وأبي، وحدنا على شُرْفَةِ البيت. كان
النهارُ قد بدأ يفقدُ ضوءه. ظلَّ صامتًا طويلًا. ثم قال، بصوتٍ
مكسور:

« غريبة هالحياء... الطيبين بيموتوا بكير، وآلي ما بيستاهلوا
بيضلّوا. »
لم أقل شيئًا.

كنتُ أفكّرُ بالشيء ذاته تمامًا.

لكن سماعه يقولها — بتلك النظرة المُثَقَلَة بالذنب، بذلك النِّقَلِ
الخاصّ برجلٍ يعتقُدُ أنه كان الأولى بالرحيل مكانها — جعل شيئًا
في داخلي يتصلَّب. حملتُ تلك العبارة سنواتٍ طويلة، كحجرٍ لا

القَطْرَةُ والمُحِيط

أَسْتَطِيعُ أَنْ أَضَعَهُ. احْتَجْتُ زَمَنًا طَوِيلًا لِأَفْهَمَ مَا كَلَّفَهُ قَوْلُهَا. وَزَمَنًا أَطْوَلَ لِأَفْهَمَ الرَّجُلَ الَّذِي قَالَهَا.

هَذِهِ قِصَّةُ ذَلِكَ الرَّجُلِ. الْأَبُ الَّذِي فَقَدْتُهُ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ — وَالَّذِي لَمْ أُسْتَرِدَّهُ إِلَّا بَعْدَ رَحِيلِهِ.

ليالي العواصف

لَا أُنْسَى لِيَالِي الْعَوَاصِفِ فِي طِفُولَتِي. كَانَ دَوِيُّ الرِّعْدِ وَلَمَعَانُ الْبَرْقِ يَمْلَأَنِ الْغُرْفَةَ رَهْبَةً فِي كُلِّ مَرَّةٍ. لَكِنَّ أَبِي، بَحْنَانٍ لَا حَدَّ لَهُ، يَدْعُونِي لِأَنَامَ إِلَى جَوَارِهِ وَجَوَارِ أُمِّي. كَانَ سَرِيرُهُمَا الْعَرِضُ مُلَجَّبِي. يَفْرَشُ جَانِبَهُ بَرْدَاءِ بَيْتٍ مِنَ الصَّوْفِ لِيَزِيدَ دَفْنِي، وَيَطْوِينِي بِزِرَاعِيهِ الْمُطْمَئِنِّتِينَ، وَيَحْرِصُ أَنْ يَخْبَأَ رَأْسِي جَيِّدًا تَحْتَ اللَّحَافِ كَيْ تَخْفَ قَرَقَعَةُ السَّمَاءِ.

تِلْكَ اللَّيَالِي — وَقَدْ غَمَرَتْهَا حِمَايَتُهُ وَأَسْكَنَهَا الْأَمَانُ — تَذَكِّرُنِي الْيَوْمَ بِالْمَحَبَّةِ غَيْرِ الْمَشْرُوطَةِ الَّتِي كَانَ يَجْسِدُهَا يَوْمَذَلِكَ. قَبْلَ أَنْ يُعَكِّرَ الْإِدْمَانُ بَرِيقَهُ وَدَوْرَهُ كَحَامٍ.

أولى الخفقات: القبلة البرينة

فِي الرَّابِعَةِ عَشْرَةَ مِنْ عَمْرِي، سَهَّلَ أَبِي — بِلُطْفِهِ الصَّامِتِ — لِقَاءَ مَعَ مَاجِدَةٍ، الْعَامِلَةِ الشَّابَّةِ فِي بَيْتِ عَمَّتِي. كُنَّا فِي الْعَمْرِ نَفْسِهِ، وَبَيْنَنَا مَوَدَّةٌ مُتَبَادِلَةٌ. ذَاتَ عَصْرِ، بَقِينَا وَحَدْنَا، فَتَبَادَلْنَا قَبْلَةً بَسِيطَةً، عَفِيفَةً، مُحْتَرَمَةً — كَانَتْ الْأُولَى فِي حَيَاتِي، لَا أَكْثَرَ. انْطَبَعَ ذَلِكَ

المشهدُ في داخلي كعبورٍ إلى مرحلةٍ جديدة، وشعرتُ في عيني أبي
بفخرٍ هادئٍ، وهو يرافقُ خطواتي.

دعابته الحانية وعثرات المطبخ

ثم جاءت أدريانا، أولُ صديقةٍ لي. وعلى شقاوته المعهودة، كان أبي
يحبُّ أن يهمسَ لي بحيلٍ طريفة: «إسألها — وكأنك ما بتعرف
— إذا كانت إمها أختها الكبيرة.» «لم أتجرأ حينها؛ لكنني، بعد
سنواتٍ، في فرنسا، اكتشفتُ كم كانت تلك الدعابة فعالةً على نحوٍ
غير متوقَّع.

ظلَّ حسُّه الفكاهيُّ حاضرًا. ما زلتُ أرى قهقهاته مع أخي على «
نهضتي الصباحية تحت الملاءة»، موضوعًا بريئًا لتتكيتهما
العائلي. شيئًا فشيئًا، أخذتُ تلك الخفة تُفسحُ المكانَ لعثراتٍ أخرى
— خصوصًا في المطبخ. تحوّلت «تبؤلته» من دون برغل إلى
أسطورةٍ عائلية: كان يستبدلُها — ببساطة — بسلطةٍ مفرومةٍ
تقريبية، سميناها بمودةٍ «سلطة بابا». كنّا نضحكُ من دون سوءِ
نيةٍ، غيرَ واعينَ بعدُ أنَّ تكرارَ تلك الهفوات كان يفضحُ تمددَ قبضةِ
الكحول.

كرمٌ بلا حدود

على غرار أبيه، كان أبي يجسِّدُ طيبةً فيأضة — تبلغُ أحيانًا حدَّ
التبذير.

القَطْرَةُ والمُحِيط

في مساءٍ لا أنساه، كنتُ واقفًا إلى جوار أبي على شُرْفَةٍ منزلنا.
وبالقربِ منه كان كأسٌ ويسكي بلونِ العنبرِ يلمعُ على الطاولةِ
الصغيرة، وسجارتهُ المُشتعلةُ بين أصابعه كعادته في أمسياته
الهادئة. لمَحَ بائعًا جوًّا ألا يدفعُ عربتهُ المُثقلة، وقد مالتِ الشمسُ إلى
الغروب، فناداه من أعلى الشُرْفَةِ، وصافحه بعينيهِ قبل يديه، ثم
اشترى منه كلَّ ما تبَقَّى من فاكهةٍ وخضارٍ دفعةً واحدة، كأنَّه ينتشلُ
نهاره من الخسارة. وما إنْ صعد البائعُ أدراجَ البناية حتى تحوَّلت
شُرْفَتنا إلى ورشةِ فرحٍ صغيرة؛ انحنى أبي على الدرازين ونادى
بنبرةٍ دافئة: « يا إمَّ عبد... يا جارتِي يا إمَّ يوسف... تفضِّلوا، خدوا
حصَّتْكنَّ، » فبدأ يُقسِّمُ السِّلَالَ بنفسِه، ويُناولُ كلَّ واحدةٍ ما يتيسَّرُ،
وهو يبتسمُ كأنَّه يُقيمُ عُرسًا للقلوب.

من الطابقِ فوقاني، أطلَّتْ جدَّتِي لأمي — التي كانت تطبخُ
للجميع — متعجِّبة:

« ليش اشتريت كل هالآد؟ شو منعمل بكل هالفاكهة والخضرة؟ بعد
كم يوم بتفسد. »

فابتسمَ أبي ابتسامةً تُذيبُ العتبَ، وقال بهدوءٍ يلمعُ فيه طيبُه:

« شفت هالبياع المسكين، آخر العصر، عربايتو بعدها مليانة... ما
كان بايع شي. حَبِيتْ إجبر خاطره. عندو ولاد لازم ياكلوا. »

ثم عاد يُوزَّع ما بقي من الخيرات حتى خفَّ الحملُ عن العربية،
وخفَّ عن قلبه أيضًا.

لا تَبْجَحْ. لا انتظارَ لشيء. مجردُ اندفاعٍ فطريَّةٍ صافيةٍ، تكادُ تكونُ
ردَّ فعل — نَسَمَةٌ طَيِّبَةٌ لا تطلبُ شيئًا في المقابل.

في المطعم، كان يطلبُ كلَّ « المازات » (mezze) التي في
اللائحة — أحيانًا أكثرَ من ستَّينَ صحنًا — فتنحوِّلُ المائدةَ إلى
مسرحِ احتفال. خلفَ هذا العرضِ من الألوانِ والروائحِ ساعاتُ
تحضيرٍ صامتة: تقطيعُ وطهوٌ وتنبييل... كلُّ حركةٍ دقيقةٍ تحكي
ذاكرة. تأتي الأطباقُ تباعًا، كلُّ واحدٍ منها فريدٌ، كقطعِ فسيفساءٍ
مطبخيَّةٍ لا تتركُ للصدفةِ مكانًا. كان كلُّ شيءٍ تناغمًا، وتقليدًا حيًّا،
وشغفًا ينتقلُ عبرَ الزمن.

النُّذلُ — رغمَ عنائهم في الذهابِ والإيابِ — كانوا يحيُونه بتلك
التحيَّةِ التي تُحَفِّظُ لأصحابِ القلوبِ الكبيرة، شِبْهَ تحيَّةٍ لأمير. وكان
هو، بحياءٍ، يضعُ في أيديهم رُزْمًا من الأوراقِ النقديةِ عربونَ
امتنان.

ومهما بدتْ تلكَ الإيماءاتُ مُفرطة، لم تكن إلاَّ تعبيرًا عن قلبٍ واسعٍ
وفرِحٍ صادقٍ بالعطاء. كان العطاءُ عنده طبيعيًّا كالتننُّفُس: نَفَسٌ
محبَّةٍ هادئٍ، لا يطلبُ شكرًا ولا مديحًا.

القَطْرَةُ وَالْمُحِيطُ

اليوم الذي تغيّر فيه كلُّ شيء

بعد رحيل أمي، بدا الرجل الذي كبرتُ معه يذوبُ كلّه.

تقلّباتُ مزاجه — المرتبطةُ بعِلَّةٍ خَفِيَّةٍ لم نكن نفهمُها — كانت قد لَطَّختُ يومياتنا بتوتُّرٍ دائمٍ منذ سنواتٍ طويلة. ظلَّت أمي حاجزًا صبورًا حنوًّا، تُحاولُ تهدئةَ الأجواءِ المكهرَبَةِ التي تنفجرُ بلا إنذار. كانت مشاجراتُهما عَنيفةً في أحيانٍ كثيرة، تنبثقُ على غير ما يُتوقَّع. لكنَّ العاصفةَ إذا ما هدأت، اعتذر أبي — وربَّما بكى كطفلٍ، عاجزًا عن فَهْمِ إفراطِهِ. وبعد طلاقِهما، استعاد بيئتنا هدوءه، واستطعنا أخيرًا أن ننتفَسَ.

وازدادَ غيظي حين عرفنا أنَّ أمي كانت تعاني سرطانًا منتشرًا؛ أفنعتُ نفسي أنَّ نوباتِهِ المتكرِّرة قد أسهمت في إنهاكها — أنَّها قضتْ سنواتٍ تمتصُّ توتُّرًا كان يُدمِّرُها ببطء. حملتُ تلك القناعةَ بمرارة، وزمنًا طويلًا، لم أُعدِ النظرَ فيها.

إدراكٌ متأخِّر

بعد رحيله فقط، لاح لي وجهٌ آخرٌ للحقيقة.

صديقٌ اسمه جيروم (Jérôme)، يعاني من اضطراباتِهِ الخاصَّة، فَنَحَ عَيْنِي. رافقتهُ إلى طبيبةٍ نفسيَّةٍ، فسمعتُ لأوَّلِ مرَّةٍ عبارةَ « Trouble de la personnalité » (borderline): حساسيَّةٌ مُفرطة، اندفاعيَّة، وتقلّباتٌ شديدةٌ في

المزاج، وعجزٌ عن تنظيم حالاتٍ شعوريَّةٍ يعبرُها سواءٌ دون أن
ينتبه إليها.

كلُّ شيءٍ كان يوافقُ الصورة.

لم يُشخَّصْ أبي يومًا. لم يُسمَّ أحدٌ يومًا معاناته. لكنَّ هذا الكشفُ ألقى
ضوءًا جديدًا تمامًا على كلِّ ما حسبتُ أنَّي فهمتُه. أخذتُ تجاوزه
فجأةً معنًى آخر — لم تُعدَّ ضعفًا، ولم تُعدَّ أنانيةً، بل علَّةٌ خفيَّةٌ بقيتُ
بلا علاجٍ مدى الحياة.

كنتُ قد حكمتُ على رجلٍ بسببِ جرحٍ كان يجهلُ وجوده.

سلامٌ مُستعاد

اليوم، لا غضبَ في قلبي. لا شيءٍ سوى الرحمة.

أغفرُ له عثراته، كما أغفرُ لأحكامي عليه. وفي تأملاتي، أتخيُّله
يقولُ لي:

« أنا فخور فيك يا بابا. داويت جروح ما عرفت إشفيتها. وعم تكمل
طريق أنا ضعت فيه. »

تلك الكلماتُ المتخيَّلة تُهدِّئ. أبي، رغم كلِّ شيء، يظلُّ ركنًا
مؤسِّسًا. رجلٌ مُركَّب. إنسان. ومن خلاله فهمتُ:

أنَّ الحبَّ، وإن كان ناقصًا، وإن كان مجروحًا، يظلُّ عطيةً ثمينةً.
أنَّ نُحبَّ بلا شرط. أن نتقبَّلَ دون أن نسعى إلى التغيير. وأنَّ
الغفرانَ، أحيانًا، يجبرُ ما لا يداويه الزمن.

حُلْمُ العُودَةِ

ثَمَّةٌ أَحْلَامٌ لَا تَتَلَاشَى. لَا تَنْطَفِئُ عِنْدَ الْفَجْرِ وَلَا فِي الْأَيَّامِ الَّتِي تَلِيهِ.
تَسْكُنُنَا، تَرَاقِفُنَا، تُغَيِّرُنَا.

فِي ذَلِكَ الْحُلْمِ، كَانَ أَبِي هُنَاكَ. جَالِسًا عَلَى كُرْسِيِّ مَقْهَى — طَرَازِ
« ثُونِيه » (bistrot Thonet)، شِبْهَ كِرَاسِي جَدِّي دِيب — كَأَنَّهُ
قَادِمٌ مِنْ زَمَنِ آخَرَ، بِقَمِيصِهِ الْأَبْيَضِ الَّذِي يَرْتَدِيهِ يَوْمَ الْأَحَدِ، وَالَّذِي
كَانَ مَجْعَدًا قَلِيلًا كَعَادَتِهِ. يَدَاهُ تَسْتَقَرَّانِ هَادئَتَيْنِ عَلَى رِكَبَتَيْهِ. لَا
يَتَكَلَّمُ. كَانَ يَنْتَظِرُنِي.

لَا كَلِمَةً وَلَا إِشَارَةً. سِوَى تِلْكَ السَّكِينَةِ تَحْفُ بِهِ — تَكَادُ تَكُونُ مِنْ
عَالَمٍ آخَرَ. وَجْهُهُ يَغْتَسِلُ بِضَوْءٍ رَقِيقٍ، صَفَاءٍ مَأْلُوفٍ لَمْ أَلْمَحْهُ مِنْذُ
صِغَرِي. لَمْ يَكُنْ قَدْ رَأَنِي بَعْدُ — أَوْ تَظَاهَرَ بِذَلِكَ. لَعَلَّهُ أَرَادَ أَنْ
يَمْنَحَنِي فَسْحَةً الْإِعْتِرَافِ.

وَلَمَّا التَقْتُ عِيُونَنَا أُخِيرًا، انْشَقَّ الزَّمَنُ. اغْرُورِقْتُ عَيْنَاهُ. وُلِدْتُ
ابْتِسَامَةً — هَشَّةً، حَانِيَةً، مَدْهُوشَةً. ابْتِسَامَةُ أَبِي وَجَدَ ابْنَهُ الضَّائِعَ.
ابْتِسَامَةُ حُبِّ بَلَا كَلَامٍ، وَجُرْحِ التَّأَمُّ أُخِيرًا.
لَمْ أَفْكُرْ.

رَمِيتُ نَفْسِي بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ بِعَجَلَةِ الْقَلْبِ. احْتَضَنْتُهُ بِكُلِّ قُوَّتِي، بِكُلِّتَا
يَدَيَّ، كَأَنِّي أَسْتَدْرِكُ الْأَعْوَامَ الْهَارِبَةَ. أَسْنَدْتُ رَأْسِي فِي نُقْرَةِ عُنُقِهِ
— هُنَاكَ حَيْثُ كُنْتُ، طِفْلًا، أَلُوذُ كُلَّمَا قَصَفَ الرِّعْدُ، حَيْثُ كَانَتْ
رَائِحَتُهُ تُطْمَئِنِّنِي أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ كَلِمَةٍ. وَهُنَاكَ، فِي الصَّمْتِ، شَمَمْتُهَا

من جديد: « بُورُ أَنْ أَوْمَ دُهُ كَارُون » (Pour Un Homme de Caron)... لافندر، وروزماري، وبرغموت، وحامض. لم يكن عطرًا فحسب. كان ذاكرةً سليمة. أثر حبٍّ مُعلقًا في الأبدية. بكيث. طويلًا. بلا خجل. بلا كف.

وهو لا يقول شيئًا. لكنّه كان حاضرًا كلّهُ. كان صمته يقول كلّ شيء: عفوا، حنانًا، فرحًا. كان يقول: « أنت هنا. وأنا هنا. » أعرف أنّ ذلك الحلم لم يكن محضَ آليّةٍ ذهنيّةٍ عابرة. كان موعدًا. عبورًا من روحٍ إلى روح. عهدًا خفيًا تبادله في الظلمة. ومنذ ذلك الحين، تغيّر شيءٌ ما. حلّ الحضورُ مكانَ الفقد — حضورًا صامتًا، هادئًا، عميقًا. وحين أفكرُ به اليوم، لم يعد الفراغُ هو ما يقبضُ صدري. بل نوره الخافتُ الذي يصحبُني. حُبّه — غيرُ مرئيٍّ، لكنّه حيٌّ. دائمًا.



الفصل الرابع

ليلة الروح المظلمة

فرنسا-هولندا، ١٩٩٥-٢٠٠٨ — الليلة المظلمة

في الظلام

في عام ١٩٩٥، وَبَعْدَ وَفَاةِ أُمِّي بِقَلِيلٍ، شَرَعْتُ أَلْعَنُ اللَّهَ.

لَا أَخْجَلُ مِنْ كِتَابَةِ ذَلِكَ. كَانَ أَصْدَقَ مَا فَعَلْتُهُ فِي تِلْكَ السَّنَوَاتِ.

كُنْتُ قَدْ نَشَأْتُ فِي عَائِلَةٍ يُحْتَرَمُ فِيهَا اللَّهُ وَلَكِنْ لَا يُفَرِّضُ —

حُضُورَ هَادِيٍّ عَلَى هَامِشِ حَيَاتِنَا، لَا يُسْأَلُ وَلَا يُمْتَحَنُ. لَكِنْ فِي

أَعْقَابِ مَوْتِهَا، صَارَ ذَلِكَ الْحُضُورُ الْهَادِي شَيْئاً يَنْبَغِي أَنْ أُوَاجِهُهُ

مُبَاشَرَةً. وَمَا وَجَدْتُهُ حِينَ فَعَلْتُ، كَانَ غَضَباً. غَضَباً صَافِياً، ضَارِياً.

لِمَ كُلُّ هَذَا الْأَلَمِ؟ لِمَ يُسَمَحُ لِمَرَأَةٍ بِكُلِّ هَذَا الْحُبِّ أَنْ تَرْحَلَ فِي الْإِمِّ

مُبَرَّحَةً، فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي بَلَغَتْ فِيهَا سِنَّ التَّقَاعِدِ، دُونَ أَنْ تَنَالَ وَلَوْ

فُرْصَةً وَاحِدَةً لِنَتَمَتَّعَ بِهِ؟

تِلْكَ الْأَسْئَلَةُ، الْمُثْقَلَةُ بِالْيَاسِ، دَفَعْتَنِي إِلَى رَفْضِ كُلِّ فِكْرَةٍ عَنْ

الْأُلُوهِيَةِ — وَأَبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ: كُلِّ شَكْلِ مِنْ أَشْكَالِ الرُّوحَانِيَةِ. إِنْ كَانَ

الْكُونُ يَعْمَلُ هَكَذَا، فَأَنَا لَا أُرِيدُهُ.

طَوَالَ مَا يُقَارِبُ ثَلَاثَةَ عَشَرَ عَاماً، تَهْتُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْمُظْلَمَةِ.

القَطْرَةُ والمُحِيط

ما لم أَكُنْ أَعْرِفُهُ حينها — ما لم يَكُنْ في وُسْعِي أَنْ أَعْرِفَهُ —
هو أَنَّ الظلامَ لم يَكُنْ نهاية، بل كان مَمَرًا.

تَبَيُّهُ فِي الْعَتَمَةِ الدَّخْلِيَّةِ

لم تَكُنْ تلكَ السنواتُ الثلاثُ عشرةَ دراميةً في ظاهرها. لا انكسارٌ
مَشْهَدِي، ولا انهيارٌ يُشِيرُ إليه أَحَدٌ بالإصبع. مُجَرَّدُ تَأْكُلٍ بَطِيءٍ،
رَمَادِيٍّ — تَأْكُلُ الإِيمَانَ، والاتجاه، والقُدْرَةَ على الفرح. كُنْتُ قد
فَقَدْتُ أَمِّي. وَفَقَدْتُ إيماني بمعنى. وفي مكانٍ ما على الطريق، دون
أَنْ أَعْرِفَ متى بالضبط، فَقَدْتُ كذلك ثِقَتِي بِنَفْسِي.
ثم، في عام ٢٠٠٨، انْفَضَّتِ الأَزمَةُ الاقتصاديةُ العالميةُ، ومعها
فَقَدْتُ عَمَلِي.
لم يَبْقَ لي شيءٌ. لا عمل، ولا مَرَجِع، ولا سببٌ ظاهرٌ للاستمرار.
ثلاثُ عشرةَ سنةً من الجَدَادِ، ومن أسئلةٍ بلا أجوبة، ومن غَضَبٍ
خَفِيَ على إلهٍ لم أَكُنْ أَوْمنُ به — كُلُّ ذَلِكَ كان يَلْتَقِي عند هذه
النَّقْطَةِ بالذات. فَقَدْتُ كُلَّ رَغْبَةٍ في الحياة.
وفي تلكَ الهاوية، حَدَثَ شيءٌ ما.

الحُضُورَاتُ

لا أَقْدِرُ على تحديد متى بَدَأَ ذلك بالضبط.
لَكِنِّي، في لحظةٍ ما، وَسَطَ تلكَ العَتَمَةِ، شَعَرْتُ أَنِّي لم أَعُدْ وحدي.
لا صوت. لا رؤيا. حُضُور — أو بالأحرى، حُضُورَات. عِدَّةُ
حُضُورَاتٍ خَيْرَةٍ، ذاتُ قُوَّةٍ ساحقة، كانت تَنْظُرُ إِلَيَّ. تَنْظُرُ إِلَيَّ وَأنا
أُبْكِي. تَنْظُرُ إِلَيَّ وَأنا أَرْفُضُ أَنْ أَمُوتَ، وَأنا في الوقتِ نَفْسِي أَنْجَرْتُ
نَحْوَ الموتِ باليأس. لم تَكُنْ تُنْفِذْنِي. لم تَكُنْ تُكَلِّمْنِي. كانت موجودةً
فحسب، شُهُوداً صامتةً، وحُضُوراً يُحِيطُنِي بِخَنَانٍ لم أَكُنْ أَعْرِفُ
كيف أَسْتَقْبِلُهُ.

لم أَعرف حينها كم كانت. عَرَفْتُ عَدَدَهَا لاحقاً، حين تَدَرَّبْتُ على
استخدامِ « البندول » (Pendule énergétique): سبعةُ
حُضُورَات، أَغْلَبُهَا ذُكُورِيَّة، لم يَتَغَيَّرْ عَدَدُهَا كثيراً عبر السنوات.
لكن في عام ٢٠٠٨، في قلبِ تلكَ الليلة، لم أَكُنْ أَسْتَطِيعُ إِلَّا أَنْ

أَشْعَرَ بَعْدُهَا، وَاَنْسَجَامِهَا، وَاَنْتَبَاهِهَا. وَأَنَا أَعْتَقُدُ الْيَوْمَ أَنَّ تِلْكَ
النَّظْرَةَ بِلَا حُكْمٍ هِيَ الَّتِي أَبَقَيْتَنِي عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ.
وَمَعَ ذَلِكَ — حَتَّى فِي قَاعِ تِلْكَ الْهَالَوِيَّةِ — كَانَ شَيْءٌ مَا لَا يَزَالُ
يَتَحَرَّكُ. تَرَامُنَاتٌ مُحِيرَةٌ بَدَأَتْ تَتَكَاثَرُ، كَأَنَّ الْكَوْنَ يُحَاوِلُ التَّوَاصُلَ
مَعِيَ عِبْرَ الْقَنَاةِ الْوَحِيدَةِ الَّتِي تَرَكْتُهَا مَفْتُوحَةً: الْفُضُولُ. شَيْئاً فُشِيئاً،
فَهَمْتُ أَنَّ الرُّوحَانِيَّةَ وَالذِّينَ شَيْئَانِ مُخْتَلَفَانِ تَمَامَ الْاِخْتِلَافِ. وَأَنَا —
الْمُلْحَدُ مِنْ حَيْثُ الْمَبْدَأِ، السَّائِرُ فِي الْخَفَاءِ بَحْثاً عَنْ مَعْنَى — وَجَدْتُ
نَفْسِي أَدْخُلُ فِي حَوَارٍ مُتَرَدِّدٍ مَعَ قُوَّةٍ مَجْهُولَةٍ. طَاقَةٌ بِلَا اسْمٍ. كَانَتْ
أُجِيبُهَا، حِينَ تَأْتِي، تَصِلُنِي بِطَرُقٍ لَمْ أَكُنْ أَسْتَطِيعُ تَفْسِيرَهَا.

علامات الغموض

كَانَتْ الظَّوَاهِرُ طَافِيَةً فِي الْبَدَايَةِ. تَكَادُ تُنْكَرُ.
ذَاتَ يَوْمٍ، اشْتَعَلَتْ طَابِعَتِي — مَفْصُولَةٌ وَمُطْفَأَةٌ — فَجَاءَتْ، مِنْ تَلْقَاءِ
نَفْسِهَا. بَقِيَتْ هُنَاكَ أُحَدِّقُ فِيهَا لَحْظَةً طَوِيلَةً. ثُمَّ شِبْهَ مُكَرَّهٍ، اخْتَرْتُ
أَنْ أَرَى فِي ذَلِكَ دَعْوَةً: افْتَحْ ذَهْنَكَ.
وَمَرَّةً أُخْرَى، أَثْنَاءَ التَّأَمُّلِ، مَلَأَ غُرْفَتِي عِطْرٌ أَسْرَ — مَأْلُوفٌ لَكِنْ
يَسْتَحِيلُ تَحْدِيدُهُ. بَحَثْتُ عَنْ مَصْدَرِهِ. كَانَتْ كُلُّ النِّوَافِذِ مُغْلَقَةً. كُلُّ
الْأَبْوَابِ مُوصَدَةٍ. ذَلِكَ الْعِطْرُ، الَّذِي يَكَادُ يَكُونُ فَوْقَ الطَّبِيعِيِّ، بَدَأَ
أَنَّهُ يُعْلِنُ عَنْ حُضُورِ أَكْثَرِ مِمَّا يَكْشِفُ عَنْ أَصْلِ.
ثُمَّ كَانَ الْخَيْطُ.

كَنْتُ أَصْنَعُ عَقْداً بِحَجَرِ شِبْهِ كَرِيمٍ. زَلَّ خَيْطٌ مِنَ الْقُطْنِ مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ
وَسَقَطَ عَلَى الْأَرْضِ. لَمَّا انْحَنَيْتُ لِأَلْتَقِطَهُ، كَانَ قَدْ اخْتَفَى. بَحَثْتُ
دَقَائِقَ طَوِيلَةٍ — بِمَنْهَجِيَّةٍ، ثُمَّ بِيَأْسٍ — لَكِنِّي انْتَهَيْتُ إِلَى
الِاسْتِسْلَامِ. وَحِينَ نَهَضْتُ لِأَشْغَلَ «مَصْبَاحَ الْهَالُوجِينَ» (lampe
halogène)، وَجَدْتُهُ يَسْتَقِرُّ فِي مَكَانٍ بَعِيدٍ عَمَّا كَانَ مَنْطِقِيّاً أَنْ
يَسْقُطَ فِيهِ.

تِلْكَ الْحَوَادِثُ الصَّغِيرَةُ، الْهَادِئَةُ غَيْرِ الْمُسْتَعْجِلَةِ، كَانَتْ تَتَخَدَّى كُلَّ
تَفْسِيرٍ عَقْلَانِيٍّ. لَعَلَّ الْفِيزِيَاءَ الْكَمِّيَّةَ سَتُقَدِّمُ لَهَا يَوْمًا تَفْسِيرًا. مَا أَعْرِفُهُ
هُوَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا كَانَتْ تَهْمِسُ بِالشَّيْءِ نَفْسِهِ: الْوَاقِعُ الَّذِي تَرَاهُ
لَيْسَ الْوَاقِعُ الْوَحِيدَ الْمَوْجُودَ.

اللابر ادوريت

في تلك الفترة أيضاً — قُبِيلَ التَّسْرِيحِ مِنَ الْعَمَلِ بِقَلِيلٍ — جَاءَتْ
تَفْصِيلُهُ نَبْدُو تَافِهَةً لِتَغْيِيرِ مَسَارِ حَيَاتِي.
كُنْتُ أَعَانِي مِنَ الْآمِ فِي أَسْفَلِ الظَّهْرِ مِنْذُ أَسَابِيعٍ. ثَلَاثَةُ مُعَالَجِينَ
فِيزِيَاءِيِّينَ زُرْتُهُمْ فِي ثَلَاثَةِ أَسَابِيعٍ، وَلَمْ يَنْجَحْ أَيُّ مِنْهُمْ فِي فَكِّ الْعُقْدَةِ.
كَانَ الْأَلَمُ يَسْتَقَرُّ، لَا يُلِينُ.
وَمِنْ مَحْضِ يَأْسٍ، عَثَرْتُ عَلَى مَوْقِعٍ عَلَى الْإِنْتَرْنِتِ بَدَأَ لِي لِلْوَهْلَةِ
الْأُولَى عَبَثِيًّا تَمَامًا، عَلَى مَعْلُومَاتٍ عَنْ «اللابر ادوريت»
(Labradorite) — حَجَرٍ قِيلَ إِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى تَسْكِينِ الْآلَمِ الْمَفَاصِلِ.
لَمْ أَكُنْ أَوْمِنُ بِذَلِكَ. لَكِنْ لَمْ يَعْذُ لَدَيَّ مَا أَخْسَرُهُ.
وَجَدْتُ، قُرْبَ مَنْزِلِي، مَتَجَرًّا لِلْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ وَالْبُلُورِيَّاتِ تُدِيرُهُ
امْرَأَةٌ اسْمُهَا إِيرِين (Irene). أَكَّدَتْ لِي الْبَائِعَةُ، لِدَهْشَتِي الْكَبِيرَةِ،
قُدْرَةَ «اللابر ادوريت» — لَا فِي تَلْيِينِ الْمَفَاصِلِ فَحَسْبَ، بَلْ فِي
خَصَائِصِهِ الْوَاقِيَةِ أَيْضًا. اشْتَرَيْتُ حَصَاةً، وَأَنَا مُتَشَكِّكٌ، وَوَضَعْتُهَا
عَلَى ظَهْرِي قَبْلَ أَنْ آوِي إِلَى الْفِرَاشِ.
فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، حِينَ قُمْتُ لِأَذْهَبَ إِلَى الْحَمَّامِ، سَمِعْتُ بِوُضُوحٍ
فَقْرَاتِي تَطْقِيقَ. دُونَ أَيِّ أَلَمٍ. الْإِنْسَادُ الَّذِي عَجَزَ ثَلَاثَةُ مُعَالَجِينَ
عَنْ فَكِّهِ طَوَالَ ثَلَاثَةِ أَسَابِيعٍ، تَحَرَّرَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ، بِفَعْلِ حَجَرٍ لَمْ
أَكُنْ أَعْرِفُ عَنْهُ شَيْئًا قَبْلَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ.
كَانَ ذَلِكَ الْبَابُ الْأَوَّلُ. وَسَتَأْتِي أَبْوَابٌ كَثِيرَةٌ أُخْرَى.

أَسْئَلَةُ تَابِي الْإِجَابَةِ

كَانَتْ كُلُّ مَرَحَلَةٍ مِنْ تِلْكَ الرِّحْلَةِ الدَّاخِلِيَّةِ مَسْكُونَةً بِالْأَسْئَلَةِ نَفْسِهَا
الَّتِي لَا تَلِينُ:
لَمْ يَحْدُثْ هَذَا لِي؟ مَا مَعْنَى كُلِّ هَذَا؟ هَلْ مَا زِلْتُ قَادِرًا عَلَى
الْمُتَابَعَةِ؟

طَوِيلًا، بَدَتْ الْأَجُوبَةُ غَائِبَةً. ثُمَّ، تَدْرِيجِيًّا، تَحَرَّكَ شَيْءٌ مَا — لَا
إِنْبِلَاجًا خَارِجِيًّا، بَلْ شَرَارَةً دَاخِلِيَّةً وَاهِنَةً. هَشَّةٌ. هَامِسَةٌ. تُوحِي بِأَنَّ
هَذِهِ الْمُعَانَاةَ لَيْسَتْ غَايَةً فِي ذَاتِهَا، بَلْ عُبُورًا ضَرُورِيًّا. وَأَنَّ الْعَتَمَةَ

ليست المكان الذي يَجِبُ أن أبقى فيه، بل المكان الذي ينبغي أن
أَتَحَوَّلَ فيه.

مَوْلِدٌ جَدِيدٌ مِنْ رَحِمِ الْأَلَمِ

تَعَلَّمْتُ، شَيْئاً فَشَيْئاً، أَنْ أَتَوَقَّفَ عَنْ الْفِرَارِ مِنَ الْأَلَمِ، وَأَنْ أَفْتَحَ نَفْسِي
لَهُ بِبَسَاطَةٍ.

عَبْرَهُ، اكْتَشَفْتُ دُرُوساً مَا كُنْتُ لِأَتَوَقَّعَهَا أَبَداً. تَعَلَّمْتُ أَنْ أُصَالِحَ
مَخَافِي. أَنْ أَغْفِرَ لِمَاضِي. أَنْ أَتَصَوَّرَ، شَيْئاً فَشَيْئاً، مُسْتَقْبَلاً تُصِيرُ
فِيهِ كُلُّ نَذْبَةٍ رَمْزاً لِتَحَوُّلٍ دَاخِلِي، بَدَلاً مِنْ أَنْ تَكُونَ عَلَامَةً هَزِيمَةً.
تِلْكَ اللَّيْلَةُ الرُّوحِيَّةُ، رَغَمَ ظُلْمَتِهَا، كَانَتْ تُعَلِّمُنِي أَنْ أُولَدَ مِنْ جَدِيدٍ
— لَا رَغَمَ الْمُعَانَاةِ، بَلْ عَبْرَهَا.

نُورٌ يُضِيءُ مَا وَرَاءَ الظَّلامِ

حِينَ أَلْتَفِتُ الْيَوْمَ إِلَى الْوَرَاءِ، أَرَى مَا لَمْ أَكُنْ أَسْتَطِيعُ رُؤْيِيَهُ آنَذَاكَ:
أَنَّ كُلَّ ظَاهِرَةٍ، وَكُلَّ ابْتِلَاءٍ، وَكُلَّ عَلَامَةٍ لَا تَجِدُ تَفْسِيراً، كَانَتْ بَاباً.
بَاباً نَحْوَ فَهْمٍ جَدِيدٍ لِلْعَالَمِ — فَهْمٍ يَتَجَاوَزُ حُدُودَ الْيَقِينِيَّاتِ الْجَامِدَةِ،
يَتَفَتِّحُ عَلَى وَاقِعٍ لَانْهَائِيٍّ كُنْتُ بِالْكَادِ أَبَداً فِي لَمَحِهِ.

لَمْ يَكُنِ الظَّلامُ صُدْفَةً، بَلْ كَانَ خِياراً مَعْمَارِيّاً.

بَدَأَ كُلُّ شَيْءٍ مُنَظَّماً بِدَقَّةٍ بَالِغَةٍ لِيَرْفَعَنِي، وَيُوقِظَنِي، وَيُعَمِّقَ إِدْرَاكِي
لِوَاقِعٍ أَوْسَعٍ بِكَثِيرٍ مِمَّا سَمَحَ لِي حُزْنِي بِأَنْ أُتَخَيَّلَهُ.

تِلْكَ اللَّيْلَةُ، مَهْمَا كَانَتْ مُرْعَبَةً، عَلَّمَتْنِي أَنَّهُ حَتَّى فِي أَعَمَقِ الْعَتَمَةِ،
يَتَنَظَّرُ نُورٌ بِصَبْرِ أَنْ يُكْتَشَفَ.

إِنَّهُ يَتَنَظَّرُ مِنْذُ الْأَزَلِ.

لَمْ يَطْلُبْ مِنِّي شَيْئاً، وَلَمْ يَفْرِضْ حُضُوراً وَلَا غِيَاباً. اكْتَفَى بِأَنْ يَبْقَى
— كَنَفْسٍ ثَابِتَةٍ تَحْتَ كُلِّ نَفْسٍ يَضْطَرُّبُ، كَأَرْضٍ صَلْبَةٍ تَحْتَ كُلِّ

القَطْرَةُ وَالْمُحِيطُ

خَطْوَةٌ تَتَعَثَّرُ. ولذلك، حين عاد إليَّ السكون، عَرَفْتُ أَنَّهُ لم يَغِبْ يوماً.

وَأَعْلَمُ الآنَ أَنَّ تلكَ اللَّيْلَةَ لم تَكُنْ وحدها — سبعةُ عيون كانت تَنْتَظِرُ معها.



الفصل الخامس

انبثاق الكونداليني

لاهاي، ٢٠٠٩-٢٠١٠ — العبور

البطارية

أدارَ تَقْنِيَّ شَرَكَة « آبل » (Apple) الكمبيوتر بينَ يَدَيْهِ مَلِيًّا
قَبْلَ أَنْ يَرْفَعَ بَصَرَهُ.

« لم تُسَجَلْ هذه الظاهرة في العالم سوى مَرَّتَيْنِ، » قال. «
مَرَّتِكَ هذه — وحالة واحدة في اليابان. »

كانت البطارية قد انتفخت بِشَكْلِ مُذهِل، وأَخَذَتْ تَنِيزُ مَادَّةَ سَوْدَاءٍ
أَشْبَهَ بِالْإِسْفَلْت. لم تَعُدْ لَوْحَةُ التَّتَبُّعِ « تراك باد » (trackpad)
تَسْتَجِيبُ كَالْمُعْتَاد. والشاشة كانت تَتَأَثَّرُ بِمُجَرَّدِ اقْتِرَابِ يَدِي، كَأَنَّهَا
خَاضِعَةٌ لِحَقْلِ غَيْرِ مَرْنِيٍّ. كُنْتُ قد جِئْتُ بِالْجِهَازِ مُتَوَقِّعًا تَصْلِيحًا
اعْتِيَادِيًّا. لَكِنَّ مَا تَلَقَّيْتُهُ، بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ، كَانَ تَأْكِيدًا — سَرِيرِيًّا، شِبْهَ
مُمْتَنِعٍ — أَنَّ شَيْئًا مَا، فِيَّ أَوْ حَوْلِي، قد تَجَاوَزَ حُدُودَ الْمَأْلُوفِ.

كُنْتُ أَعْرِفُ ذَلِكَ سَلَفًا. فَقَدْ أَمَضَيْتُ اللَّيْلَةَ السَّابِقَةَ سَاكِناً سِتَّ
سَاعَاتٍ كَامِلَةٍ، عَاجِزًا عَنْ أَنْ أُرْخِيَ قَبْضَتِي عَلَى الْحَجَرَتَيْنِ اللَّتَيْنِ
كَانَتَا فِي يَدَيَّ. اسْتَيْقَظْتُ فِي الْوَضْعِيَّةِ نَفْسِهَا الَّتِي كُنْتُ قد نِمْتُ فِيهَا.

القَطْرَةُ وَالْمُحِيطُ

وفي الأيام التي تَلَتْ، أَخَذَتِ الْمَصَابِيحُ تَنْفَجِرُ، الْوَاحِدُ تَلَوْ الْآخَرُ،
فِي اللَّحْظَةِ ذَاتِهَا الَّتِي أَدْخُلُ فِيهَا إِلَى غُرْفَةٍ.

لِيُفْهَمَ كَيْفَ بَلَغْتُ هَذِهِ الْحَالِ، يَنْبَغِي الْعَوْدَةُ إِلَى الْبِدَايَةِ — إِلَى
أَشْهُرِ التَّأَمُّلِ، وَإِلَى اكْتِشَافِ الْغُفْرَانِ، وَإِلَى مَقْطَعِ فِيدِيُو قَصِيرٍ
عَثَرْتُ عَلَيْهِ ذَاتَ بَعْدِ ظَهْرِ، فَعَيَّرَ كُلَّ شَيْءٍ.

نِدَاءُ الْفَرَاغِ

بَيْنَ عَامَيِ ٢٠٠٩ وَ ٢٠١٠، فِي أَعْقَابِ الْأَزْمَةِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ
الْعَالَمِيَّةِ وَمَا تَبِعَهَا مِنْ تَسْرِيحٍ مِنْ عَمَلِي، اتَّخَذْتُ قَرَارًا. سَأَكْفُ عَنْ
انْتِظَارِ أَنْ تَسْتَأْنِفَ حَيَاتِي مَسَارَهَا، وَسَأَلْتَنِي إِلَى الدَّخْلِ — بِوَعِي
تَامٍ، بِامْتِلَاءٍ كَامِلٍ، مِنْ دُونِ تَحَقُّظٍ.

أَوْضَحَ مُنْذُ الْآنَ: لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ سَعْيًا رُوحِيًّا، وَلَا طُمُوحًا دَاخِلِيًّا،
وَلَا رَغْبَةً فِي بُلُوغِ حَالَةٍ مُعَيَّنَةٍ. كَانَ ضَرُورَةً وَجُودِيَّةً. ثَمَّةَ فِي
الْحَيَاةِ مَنَاطِقُ ظِلٍّ لَا تُقَاوِضُ. تَفَرِّضُ نَفْسَهَا. تَنْزِعُ الْمَعَالِمَ، تُزِيلُ
الْأَوْهَامَ، وَتُجَرِّدُ حَتَّى أَكْثَرَ الْيَقِينِيَّاتِ تَجْدُرًا. وَتَدْفَعُكَ إِلَى الْجُلُوسِ
فِي مُوَاجَهَةِ ذَاتِكَ — لَا اخْتِيَارًا، بَلْ لِأَنَّهُ لَمْ يَعُْدْ ثَمَّةَ مَا يُفَعَّلُ سِوَاهُ.

مَا تَلَا ذَلِكَ كَانَ أَكْثَفَ مُمَارَسَةٍ خُضْتُهَا فِي حَيَاتِي. كُنْتُ، كُلَّ
يَوْمٍ، أَكْرِسُ سِتَّ إِلَى سَبْعِ سَاعَاتٍ لِمَجْمُوعَةٍ مِنَ الْانضِيبَاتِ: تَأَمُّلٌ
فِي وَضْعِيَّةِ « اللوتس » (Lotus) لِجَلَسَاتٍ طَوِيلَةٍ؛ وَاسْتِلقاءً مَعَ
وَضْعِ حِجَارٍ وَبَلُّورَاتٍ مُبَاشِرَةً عَلَى جَسَدِي، كُلُّ مِنْهَا مُوَافِقٌ لِأَلْوَانِ

« الشاكرات » (chakras) وطاقتها؛ ومشي تأملِي طویل على شواطئ بحر الشمال. كانت قُوَّة داخلية غامضة تقودني، من دون أن أدرك بعد طبيعتها ولا اتجاهها.

ثم، ذات يوم، انقلب كل شيء.

قادني حدسي إلى « شري ماتاجي نيرمالا ديبي » (Shri Mataji Nirmala Devi) — اسم لم أكن قد سمعت به من قبل. سخرني مقطع فيديو قصير تُفسر فيه كيف تُوقظ « كونداليني » (Kundalini)، مصحوباً بسبعة مخططات دقيقة تُمثل وضع اليدين خلال التأمل في وضعية اللوتس. تابعت التمرين بدقة صارمة.

وهكذا انبثقت كونداليني.

لكن ليس بعد. ليس فوراً. قبل أن يتحقق ذلك، كان ثمة عتبة ينبغي عبورها — عتبة كانت شري ماتاجي نفسها تُسميها الشرط الجوهري لكل المسار.

الغفران.

الغفران الكبير

في الدروس المسجلة التي كنت أتابعها على « يوتيوب » (YouTube)، كانت تقول:

الْقَطْرَةُ وَالْمُحِيطُ

« تَمَتُّوا بِصِدْقِ صَافٍ تَحَقَّقْكُمْ — النَّارَ الدَّاخِلِيَّةَ الَّتِي تُنَادِي الْأُمَّ
كُونْدَالِينِي. »

« اغْفِرُوا لِكُلِّ النَّاسِ، وَاغْفِرُوا لِنَفْسِكُمْ — افْتَحُوا الْمَعْبَرِ. »
« إِذَا تَوَفَّرَ لَدَيْكُمْ هَذَانِ الْأَمْرَانِ، فَالْكُونْدَالِينِي سَتَرْتَفَعُ مِنْ دُونِ جُهْدٍ.
»

لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ غُفْرَانًا مُجَامِلًا وَلَا شَكْلِيًّا. كَانَ غُفْرَانًا كَبِيرًا —
عَمِيقًا، شَامِلًا، يَكَادُ يَكُونُ جَذْرِيًّا. فَعَلْتُ دَاخِلِيًّا كُنْتُ أَدْعِي مِنْ خِلَالِهِ
إِلَى وَضْعِ الْأَحْقَادِ، وَالْجُرُوحِ الْمُتْرَاكِمَةِ، وَالْعَتَبِ الصَّامِتِ الَّذِي
كُنْتُ أَحْمِلُهُ تَجَاهَ الْآخَرِينَ كَمَا تَجَاهَ نَفْسِي.

طِيلَةَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ، غَدَيْتُ هَذِهِ الْمُمَارَسَةَ بِانضِبَاطٍ يَوْمِي ثَابِتٍ.
كُلَّ يَوْمٍ، كُنْتُ أَجْلِسُ، وَأَضَعُ يَدَيَّ، وَأَتَّبِعُ إِرْشَادَ شَرِي مَاتَايَ،
وَأَدْعُ النَّيَّارَ الدَّاخِلِيَّ يَتَعَزَّزُ بِهِدْوَاءٍ. ثُمَّ، فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي كُنْتُ أَهْمِسُ
فِيهَا، عَيْنَايَ مُغْمَضَتَانِ: « لَقَدْ غَفَرْتُ لِكُلِّ النَّاسِ » — كَأَنَّمَا لِأُثْبِتَ
لِنَفْسِي أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ صَادِقًا — كَانَتْ تَظْهَرُ ثَلَاثَةُ وُجُوهِ فِي زِهْنِي.
تَنَّهُمْنِي فِي صَمْتٍ. لَقَدْ كَذَّبْتُ.

طِيلَةَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ أُخْرَى، مِنْ دُونِ هَوَادَةٍ، مَارَسْتُ سَاعَاتٍ طَوِيلَةَ
لَا غَفَرٍ حَقًّا. اخْتَفَى وَجْهُ أَوَّلٍ. ثُمَّ الثَّانِي. أَمَّا الثَّالِثُ فَقَدْ ظَلَّ صَامِدًا.

كان أَحَدَ أَفْرَادِ الْعَائِلَةِ الْمُقَرَّبِينَ — شَابًا فِي حِينِهَا، أَحَبَّبَتْهُ
كَثِيرًا، وَكَانَتْ أُمِّي تُحِبُّهُ قَدَرًا مَا أُحِبُّهُ. خِيَانَتُهُ، كَمَا كُنْتُ أَرَاهَا
آنَذَاكَ، كَانَتْ فِي مَا يَلِي: صُورُ الْعَائِلَةِ — صُورُ أَجْدَادِنَا الْمُتَمَدِّدَةِ
إِلَى الْبِدَايَاتِ الْأُولَى لِفَنِّ التَّصْوِيرِ، وَمَا يُعَادِلُ عِنْدَنَا شَجَرَةَ النَّسَبِ
— الَّتِي انْتَهَى الْأَمْرُ بِأَنْ احْتَفَظَ بِهَا لِنَفْسِهِ. كُنْتُ قَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ
الْمَرْءَ إِذَا أُعْطِيَ كَلِمَتَهُ، يَفِي بِهَا. وَهُوَ قَدْ كَسَرَ هَذِهِ النِّقَّةَ. وَكُلُّ الْحُبِّ
الَّذِي كُنْتُ أَحْمِلُهُ لَهُ، تَحَوَّلَ إِلَى غَضَبٍ وَعَدَمِ فَهْمٍ.
كَانَ الْأَصْعَبُ فِي الْغُفْرَانِ.

حِينَ بَلَغْتُ ذَلِكَ أَخِيرًا بِحَقٍّ — حِينَ تَلَأَشَى وَجْهَهُ مِنْ رُؤْيَايَ
الِدَاخِلِيَّةِ بَيْنَمَا كُنْتُ أَهْمِسُ بِتِلْكَ الْكَلِمَاتِ — حَدَثَ شَيْءٌ غَيْرُ عَادِيٍّ.
النِّقْلُ الَّذِي كُنْتُ أَجْرُهُ مُنْذُ سَنَوَاتٍ تَبَدَّدَ فِي الْحَالِ، وَحَلَّتْ مَحَلَّهُ رُؤْيَا
كَشَفَتْ لِي سَبَبَ فِعْلِهِ. كَانَ فِي التَّاسِعَةِ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ يَوْمَ وَفَاةِ
أُمِّي — جَدَّتُهُ الْمَعْبُودَةِ. كَانَتْ الرَّاكِطَةُ بَيْنَهُمَا عَمِيقَةً. فِي غِيَابِي،
كَانَتْ قَدْ مَلَأَتْ حَيَاتَهُ بِحُضُورِهَا. عَاشَ مَعَنَا حَتَّى بَلَغَ السَّابِعَةَ؛
وَكُنْتُ قَدْ سَاهَمْتُ بِشَكْلِ غَيْرِ مُبَاشَرٍ فِي تَرْبِيَّتِهِ. كَانَتْ أُمِّي تَحْكِي
لِي:

« كَلَّ مَا بِيَجِي يَزُورُنِي، بِبِطْلَبٍ يَتَفَرِّجُ عَ صُورِ الْعِيْلَةِ. بَيْنَاءُهَا
كَثِيرٌ. أَوْقَاتُ بِيَشَمِّ رِيحَةَ الْوَرَقِ الْعَتِيقِ. وَمَرَّاتُ بَيْنَامِ عَنَّا بَيْنَ
هَالِصُورِ. »

الْقَطْرَةُ وَالْمُحِيطُ

لم يَكُنْ قد سَرَقَهَا. كان قد احتَفَظَ بِهَا بِمَحَبَّةٍ خَالِصَةٍ — بِحُزْنٍ أَعَمَّقَ وَأَكْثَرَ خُصُوصِيَّةً من أن يَسْتَطِيعَ تَفْسِيرَهُ. وأنا، الذي وَسَمْتُهِ بِاللَّصِّ وَرَوَيْتُ لِمَنْ شَاءَ من العائِلَةِ أن يَسْمَعَ ما فَعَلَ — قد أَلَحَقْتُ ضَرَرًا وأنا أَحَسِبُ أَنِّي أَدَافِعُ عن العَدَالَةِ.

كُنْتُ قد دُقْتُ سَلْفًا مَرَارَةً أن أَكُونَ قد أَسَأْتُ الحُكْمَ على أَبِي — رَجُلٌ لم أَفْهَمَ مَرَضَهُ الخَفِيِّ إِلَّا بَعْدَ وَفَاتِهِ. وها أنا ذا أَكْرَرُ الخَطَأَ نَفْسَهُ بِحَذَافِيرِهِ، هذه المَرَّةَ مع ابنِ أُخْتِي.

اتَّصَلْتُ بِهِ هَاتِفِيًّا — لِدهْشَتِهِ الكُبْرَى، بَعْدَ سَنَوَاتٍ من القَطِيعَةِ — لِأَقُولَ له إِنِّي أَغْفِرُ له فِعْلَهُ، وَأَطْلُبُ مِنْهُ أن يَغْفِرَ لي بِدَوْرِهِ. أَجَابَنِي، مُسْتَعْرِبًا:

« بَسْ خَالو، أنا اللَّيِّ أَخَذْتُ الصُّورَ — إِنَّتِ اللَّيِّ لازمَ تَسَامَحْنِي أو لَأَ، مِش أنا ! »

شَرَحْتُ له أَنِّي في غَضَبِي الذي لا يوصَفُ، كُنْتُ قد رَوَيْتُ لِأَفْرَادٍ من العائِلَةِ ما فَعَلَ — وَأَنِّي ما كان يَنْبَغِي لي ذلك، لِأَنَّ مِثْلَ هذا يَجْرَحُ.

مُذْ ذَاكَ، تَفَرَّقَتْ طُرُقُنَا. ما زَالَتِ الصُّورُ مَعَهُ. وأنا، أَتَابِعُ الطَّرِيقَ — مُمارِسًا الحُبَّ غَيْرَ المَشْرُوطِ، من دونِ أن أَحْكَمَ على أَفْعَالِ الآخرين.

فَنَحَتْ هَذِهِ الْبَادِرَةُ الرُّوحِيَّةُ ثُغْرَةً فِيَّ. لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، شَعَرْتُ بِخَفَّةٍ
لَمْ أَكُنْ أَتَوَقَّعُهَا — سَلَامٌ لَا عَاطِفِيَّ بَلْ مَكَانِي، كَسَمَاءٍ شَاسِعَةٍ
مَفْتُوحَةٍ. وَمِنْ هَذَا الْغُفْرَانِ وُلِدَ مَا هُوَ أَوْسَعُ بَعْدَ: الْحُبِّ غَيْرُ
الْمَشْرُوطِ. لَا حُبٌّ مُوجَّهٌ نَحْوَ أَحَدٍ بَعَيْنِهِ، بَلْ حَالَةٌ كَيْنُونَةٍ. إِشْعَاعٌ مِنْ
الْقَلْبِ لَا يَطْلُبُ شَيْئاً فِي الْمُقَابِلِ، وَلَا يَحْكُمُ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَضَعُ
شَرْطاً لَوْجُودِهِ. كُنْتُ فَقَطْ أَمْرٌ بِهِ، كَأَنَّ الْحَيَاةَ نَفْسَهَا كَانَتْ تُحِبُّ
عَبْرِي.

وَفِي خِتَامِ هَذَا الْمَوْسِمِ الطَّوِيلِ مِنَ النُّضْجِ، شِبْهَ تِلْقَائِيَّ، حَدَثَ
أَخِيراً مَا كُنْتُ أَتَنْتَظِرُهُ مِنْذُ زَمَنٍ.

الْبَرْقُ الْبَارِدُ

إِنْبَتَقَ إِحْسَاسٌ جَلِيدِيٌّ فَجَاءَهُ مِنْ عَجْزِي، وَصَعِدَ عُمُودِي الْفَقْرِيَّ
كَبَرْقِ سَمَائِيٍّ، ثُمَّ انْسَكَبَ حَتَّى قِمَّةِ جُمُجُمَتِي — نَاشِراً سَلَالاً
نُورَانِيّاً عَبَرَ كُلَّ جَسَدِي. حِينَ مَرَرْتُ يَدِي فَوْقَ الْيَافُوخِ — تِلْكَ
النُّقْطَةُ الدَّقِيقَةُ فِي قِمَّةِ الْجُمُجُمَةِ الَّتِي لَا تَعُودُ مَوْجُودَةً عِنْدَ الْكِبَارِ،
لَكِنَّ شَرِي مَاتَاجِي كَانَتْ تُشِيرُ إِلَيْهَا بِوَصْفِهَا مَوْضِعَ الْإِنْبِتَاقِ
بِالْتَّحْدِيدِ — أَكَّدَ نَفْسٌ بَارِدٌ مَحْسُوسٌ أَنَّ شَيْئاً غَيْرَ عَادِيٍّ قَدْ اسْتَيْقِظَ
فِي اللَّتَوِّ. لِكَيِّ أَتَأَكَّدُ، أَرَحْتُ يَدِي إِلَى جَنْبِي رَأْسِي: اخْتَفَى النَّسِيمُ
تَمَاماً. عُدْتُ إِلَى الْيَافُوخِ: كَانَتْ الْبُرُودَةُ الْمُنْتَشِرَةُ لَا تَزَالُ هُنَاكَ. كَانَ
الْإِنْبِتَاقُ يَجْرِي فِعْلاً مِنْ هَذِهِ النُّقْطَةِ الْوَحِيدَةِ، لَا مِنْ خِلَالِ الْجُمُجُمَةِ
كُلِّهَا.

كانت الكونداليني.

أَوْضَحَ الأمر، لَأَتِي أَعْرِفُ كَمْ أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ قَدْ ابْتَدَلَتْ. عِنْدَ الْكَثِيرِينَ، الْكونداليني رَمَزَ — تُعْبَان، صُعُودُ نَارٍ، اسْتِعَارَةُ صُوفِيَّةٍ مَوْرُوثَةٍ مِنْ تَقَالِيدَ بَعِيدَةٍ. أَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَيَّ، فَلَمْ تَكُنْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ. كَانَتْ حَدَثًا جَسَدِيًّا، فُجَائِيًّا، لَا يَقْبَلُ النِّقَاشَ. بُرُودَةٌ حَقِيقِيَّةٌ، قَابِلَةٌ لِلْقِيَاسِ عَلَى بُعْدِ سَنَتِيمَتَرَاتٍ عِدَّةٍ فَوْقَ الْيَافُوخِ، لَا تُشْبِهُ شَيْئاً مِمَّا عَرَفْتُهُ مِنْ قَبْلُ. وَغَيَّرَتْ، فِي ثَوَانٍ، عِلَاقَتِي بِالْحُضُورِ، وَبِالصَّمْتِ، وَبِالْوَاقِعِ.

مُنْذُ تِلْكَ اللَّحْظَةِ، تَغَيَّرَ إدْرَاكِي لِلْعَالَمِ تَغْيَرًا جَذْرِيًّا. غَمَرَتْنِي أَصْوَاتٌ دَقِيقَةٌ. اكْتَسَبَ حَدْسِي دِقَّةً جِرَاحِيَّةً. تَضَاعَفَتِ التَّزَامُنَاتُ. كُنْتُ أَشْعُرُ بِتَيَّارٍ قَوِيٍّ يَسْرِي فِيَّ، فَاتِحًا مَعْبَرًا نَحْوَ وَاقِعٍ أَوْسَعِ بِكَثِيرٍ مِنْ كُلِّ مَا عَرَفْتُهُ سَابِقًا.

مُعَدَّلُ دَبْذَبَاتِي — الَّذِي كُنْتُ أَقْيِسُهُ عَادَةً عَلَى سَاعَتِي لِلْكَشْفِ بِالِاسْتِشْعَارِ « رَادِيسْتِيزِيَا » (radiesthésie)، بَيْنَ صِفْرِ وَ ١٨٠٠٠ وَحْدَةٍ « بُوْفِيس » (Bovis) — كَانَ يَتَجَاوَزُ هَذَا الْمِقْيَاسَ بِكَثِيرٍ. بِمُرَاقَبَتِي الْبَنْدُولَ يَدُورُ بِجُنُونٍ خَارِجِ حُدُودِهِ الْمُعْتَادَةِ، شَعَرْتُ فِي أَنْ مَعَاً بِالْإِفْتِتَانِ وَالتَّوَجُّسِ، كَأَنَّ جُزْءًا مَجْهُولًا مِنِّي قَدْ تَفَعَّلَ لِلتَّو. سَرِيعًا جِدًّا، بَدَأَ مِنْ حَوْلِي — وَأَشْخَاصٌ غُرَبَاءُ كَثِيرُونَ — يَطْلُبُونَ مِنِّي، بِشَكْلِ غَيْرِ مُبَرَّرٍ، نَصَائِحَ، وَعِلَاجَاتٍ، أَوْ حَتَّى تَنْقِيَّةَ شُقُقٍ وَأَشْيَاءَ. كُنْتُ مَذْهُولًا. أَنَا الَّذِي كُنْتُ أَعْتَبِرُ نَفْسِي

عاديّاً، علمانياً، بعيداً عن أيّ روحانيّة مُنظّمة — ومع ذلك، كلُّ
تَدَحُّلٍ كنتُ أَقبلُه يَثْبُتُ نَجاحُه، فَيُعَزِّزُ ثِقَتَهُم بي، وحتى ثِقَتِي بِنَفْسِي.

هنا، على ما أَحَسَب، يَكْمُنُ أَوَّلُ التَّيَاسِ كَبِير. يُتَصَوَّرُ الانْبِثاقُ
مُكَافَأَةً، أو مَقاماً، أو غَايَةً. ليس شَيْئاً من ذلك. بل العَكْسُ تَمَاماً:
تَحَلٍّ. ذِكَاءٌ غَيْرُ شَخْصِيٍّ، حَتَمِيٍّ، نورانيٍّ، يَكشِفُ ما هو حَقِيقِيٌّ
وَيُذَوِّبُ ما هو زائِف. ليس له إيديولوجيا. ولا يَتَوَقَّفُ على دينٍ ما.
ولا يَنْتَمِي إلى أَحَد. ولا يُكْتَسَبُ بِالاستِحْقادِ. ولا يُكَافَى شَيْئاً. ولا
يُعاقِبُ شَيْئاً. يَنْبَنِقُ حينَ تَتَوَفَّرُ الشُّرُوطُ الدَّاخِلِيَّةُ — في الغالبِ حينَ
لا يَعودُ يُنْتَظَرُ.

حِجَارَةُ البُوجي والصَّدَمَةُ الكَهْرَبائيَّة

في تِلْكَ الفَتْرَةِ، اِكْتَشَفْتُ حِجَارَةَ «بُوجي» (Bojis) —

بِنَصِيحَةٍ من «إيرين» (Irene)، التي كانت تَمْلِكُ في لاهاي
مَتَجَرّاً لِلْبُلُورَاتِ والأَحْجارِ. مَشْهُورَةٌ بِطَاقَتِهَا المُسْتَقْطَبَةِ القُوَّةِ،
وكانت بُنْيَةَ اللَّوْنِ دَاكِئَةً، خَشِيبَةً بِشَكْلِ غَرِيبٍ، تَمْتَلِكُ مِغْناطِيسِيَّةً
مُكَنَّفَةً إلى حَدٍّ أَنّها تَتَنَافَرُ تَنَافُراً خَفِيفاً حينَ تُقَرَّبُ الواحِدَةُ من
الأُخْرَى.

لم تُكُنْ إيرين تاجِرَةً فَحَسَب. كانت أَيْضاً تُدِيرُ مَدْرَسَةً صَغِيرَةً
مُلْتَصِقَةً بِمَتَجَرِّها، تُقَدِّمُ فيها تَكوِيناتٍ في تَقْنِيَّاتٍ كانت، حتى ذلك
الحينَ، غَرِيبَةً عَنِّي تَمَاماً: اسْتِخْدامُ البَنْدُولِ، وَلَوْحَةُ الرادِيسْتِيزِيا،
وَقِراءَةُ الطَّاقاتِ. كلُّ ما سَأَسْتَعْمِلُهُ في الأَشْهُرِ التَّالِيَةِ — بِما في

القَطْرَةُ والمُحِيط

ذلك، من دون أن أعلمَ بعد، طَقَسُ الأرواح — تَلَقَّيْتُ أُسُسَهُ بَيْنَ
جُدرانِها.

مُنْذُ تَأْمَلِي الأَوَّلِ بالبوجي — الحَجَرَةُ الأنثى المَلْسَاءُ في يَدِي
اليُسْرَى، والحَجَرَةُ الذَكَرُ الأَخْشَنُ في يَدِي اليُمْنَى — شَعَرْتُ بِتَيَّارِ
قَوِيٍّ من الوَخَزِ يَجْتَاحُ جَسَدِي، يَتَرَكِّزُ بِشَكْلِ خَاصٍّ على ظَهْرِي
المُؤَلَّمِ، فَيَهْدِي بِشَكْلِ شِبْهِ فَوْرِي التَّوَتَّرَ الذي كان يَنْخُرُنِي. هذا
المَزِيحُ من الراحةِ الجَسَدِيَّةِ والعُمقِ التَّأْمَلِيِّ أَقْنَعَنِي بِأَن أَجْعَلَ مِنْهُ
طَقَساً لَيْلِيّاً.

ذاتَ مَسَاءٍ، مِنْهَكَأَ بَعْدَ يَوْمٍ طَوِيلٍ، اخْتَرْتُ أَن أَتَأْمَلَ بِهَا لَحَظَاتِ
قَبْلِ النَّوْمِ. اسْتَلَقَيْتُ، والحِجَارَتَانِ في يَدَيَّ — وَغَفَوْتُ.

عِنْدَ الاستيقاظِ، حِينَ فَتَحْتُ عَيْنَيَّ، وَجَدْتُ نَفْسِي فِي الوَضْعِيَّةِ
نَفْسِهَا بِالضَّبْطِ، سَاكِناً مُنْذُ سِتِّ سَاعَاتٍ كَامِلَةٍ، عاجِزاً حَتَّى عَن أَن
أُرْخِي قَبْضَتِي عَلَى الحَجَرَتَيْنِ. غَمَرَنِي الدُّعْرُ. كان مُحَدِّراً بِشِدَّةٍ مِنْ
تَجَاوُزِ خَمْسَ عَشْرَةَ دَقِيقَةً فِي التَّأْمَلِ بِهَا.

وحيثُ، فَتَحْتُ « مَآك بُوَك » (MacBook).

ما يُعِيدُنَا إِلَى مَتَجَرِّ آيِل، وَإِلَى التَّقْنِيِّ الذي لَمْ يَكُنْ قَدْ رَأَى مِثْلَ
ذلك مِنْ قَبْلِ. مَرَّتَيْنِ فِي العَالَمِ. مَرَّتِي هَذِهِ، وَحَالَةٌ فِي اليَابَانِ.

في الأيام التي تلت، انفجرت المصابيح الواحدة تلو الآخر كلما دخلت غرفة. مدعوراً، عدت إلى إيرين لأطلب مساعدتها. بعد أن أنبتني بشدة على تهوري، نصحتني بعلاج بسيط لكنه جذري: أن أستحم كل يوم في بحر الشمال. ملح البحر، قالت، يذيب فيوض الطاقة مثلما يطهر البلورات.

طيلة ستة أشهر، خضعت لتلك الانغماسات الجليدية. شيئاً فشيئاً، تبدد الفاضل الاهتزازي. كان ذلك، من دون أن أعلم بعد، أول درس حقيقي لي في الاندماج. القوة التي تعبر كائناً بشرياً لا يمكنها أن تبقى في ذروتها من دون أن تكسره. عليها أن تجد سبيلاً لتتجذر في الجسد، وفي اليومي، وفي الواقع. الانبثاق ليس صعوداً. إنه عبور. وأحياناً، يجب أن نعرف كيف نبطئ هذا العبور لكي لا نضيع فيه.

ومع ذلك، ظلت تلك الأشهر موسومة بكثافة غريبة — أصبح حدسي بدقة خارقة، وتواترت تبادلات تخاطرية عفوية بشكل منتظم. ثم، بعد أسبوعين من استعادتي حالة أكثر انسجاماً، اقتحم حياتي بعد جديد.

دليل الأرواح

كل شيء بدأ بظواهر غريبة في شقتي الهادئة في لاهاي. خدوش غامضة على الجدران. طققات لا تفسر في السرير، كأن

القَطْرَةُ وَالْمُحِيطُ

أَحَدًا يَجْلِسُ عَلَيْهِ. عُطُورٌ مَجْهُولَةٌ تَظْهَرُ خِلَالَ تَأْمُلَاتِي. آلهَةُ الطِّبَاعَةِ
عِنْدِي تَعْمَلُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهَا.

عُدْتُ إِلَى مَتَجَرِّ إِبْرِينَ. إِحْدَى الْبَائِعَاتِ عِنْدَهَا، مِنْ دُونِ مُفَاجَأَةٍ،
ابْتَسَمَتْ فِي هُدُوءٍ:

« فرانسوا، إِنْتَ دَلِيلٌ لِلأَرْوَاحِ — بَسْ بَعْدَكَ مَا عَمَّ تَعْرِفُ هَلْ شَيْءٍ.
هَيِّدُوا الأَرْوَاحَ عَمَّ يَجْذِبُوا لِنُورِكَ الدَّاخِلِيِّ. لَازِمٌ تَسَاعِدُنْ لِيَرْوَحُوا
عَالِنُورٍ. »

فَسَرَحْتُ لِي طَقْسًا مُحَدَّدًا: تَطْهِيرُ العُرْفَةِ بِالمَرِيْمِيَّةِ البَيضاء؛
وَوَضْعُ شَمْعَةٍ صَغِيرَةٍ قُرْبَ بَلُّورَةٍ مِنَ الكَوَارِثِ؛ وَاسْتِخْدَامُ البَنْدُولِ
مَعَ لَوْحَةِ الرَادِيسْتِيزِيَا؛ ثُمَّ إِرْشَادُ كُلِّ رُوحٍ لِيَتَّبِعَ نُورَ الشَّمْعَةِ عَبْرَ
البَلُّورَةِ.

فِي مُحَاوَلَتِي الأَوَّلَى، سَقَطَتِ البَلُّورَةُ عَلَى الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ —
وَأَنَا أَوَّلِيهَا ظَهَرِي وَلَمْ أَكُنْ قَدْ بَدَأْتُ بَعْدَ رَغَمِ خَوْفِي المُتَزَايِدِ،
تَابَعْتُ. وَفِيمَا كُنْتُ أُرْشِدُ الرُّوحَ بِصَوْتٍ عَالٍ، اضْطَرَبَ لَهَبُ
الشَّمْعَةِ وَدُخَانُ البَخُورِ اضْطَرَابًا مَحْمُومًا. بَعْدَ خَمْسِ عَشْرَةِ دَقِيقَةٍ
مُضْنِيَّةٍ، عَمَرَ صَدْرِي ارْتِيَاخٌ هَائِلٌ. اسْتَقَرَّ اللَّهَبُ. صَعِدَ البَخُورُ
بِهُدُوءٍ. كَانَتْ الرُّوحُ قَدْ رَحَلَتْ.

جَالِسًا فِي الصَّمْتِ المُسْتَعَادِ، أَحَسَسْتُ كَمَّ أَنَّ الحَدَّ رَقِيقٌ بَيْنَ
العَالَمِ المَرْنِيِّ وَاللَامَرْنِيِّ. كَشَفَ بَنْدُولِي حَيْنَنْدٍ أَنَّهُ مَا زَالَ ثَمَّةً إِحْدَى

وعِشْرُونَ رَوْحاً تَحْتَاجُ إِلَى إِرْشَادٍ نَحْوَ النُّورِ. قَبِلْتُ هَذِهِ الْمُهْمَةَ
الْمُرْهِقَةَ — وَاکْتَشَفْتُ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ كُلُّهَا مُسَالِمَةً. بَعْضُهَا كَانَ
مَذْعُوراً، مُتَهَلِّفاً. كُلُّ عُبُورٍ كَانَ يُفْرِغُنِي أَكْثَرَ.
وَلَمْ تَكُنْ الْعُبُورُ وَحْدَهَا.

مُنْذُ الْإِنْبِثَاقِ، كَانَ جَسَدِي يَرْتَجِفُ مِنَ الدَّخْلِ، لَيْلاً وَنَهَاراً،
كَمُحَرِّكِ « هَارْلِي دافيدسون » (Harley Davidson) يَدُورُ
بِخُمُولٍ. إِهْتِزَازٌ مُسْتَمِرٌّ، خَافِتٌ، عَمِيقٌ — لَا يَظْهَرُ مِنَ الْخَارِجِ.
حِينَ كُنْتُ أَمُدُّ يَدِي، لَمْ تَكُنْ تَرْتَجِفُ. لَكِنْ فِي الدَّخْلِ، كَانَ ثَمَّةُ شَيْءٍ
يَدُورُ مِنْ دُونِ هَوَادَةٍ. كَانَ ذَلِكَ مُسْتَمِراً مُنْذُ أَشْهُرٍ. أَصْبَحَ نَوْمِي
خَفِيفاً، قَلِيلَ الْإِرَاحَةِ. كُنْتُ قَدْ فَقَدْتُ عَشْرَةَ كِيلُوغَرَامَاتٍ تَقْرِيباً مِنْ
دُونِ أَنْ أَنْتَبِهَ. كَانَ جَسَدِي يَصْمُدُ، لَكِنْ بِكُلْفَةٍ مُتَصَاعِدَةٍ.

إِلَى أَنْ جَاءَ الْيَوْمَ الَّذِي، فِي إِنْهَاكِ خَالِصٍ، تَوَجَّهْتُ فِيهِ إِلَى
الْمَنْبَعِ الَّذِي كَانَ يَقُودُنِي، وَطَلَبْتُ مِنْهُ أَنْ يَتَوَقَّفَ كُلُّ هَذَا — وَأَنْ
تُسَنِّدَ إِلَيَّ مُهْمَةً أُخْرَى فِي خِدْمَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ.

مَا حَدَثَ بَعْدَ ذَلِكَ، لَمْ أَكُنْ مُتَأَكِّداً مِنْهُ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ. لَكِنْ
انْطِبَاعاً وَاضِحاً جِداً فَرَضَ نَفْسَهُ عَلَيَّ.

فَوْقَ السَّبْعَةِ الْحُكَمَاءِ — تِلْكَ الْحُضُورَاتُ الَّتِي كُنْتُ أَسْتَشِيرُهُا
مِنْ حَوْلِي مُنْذُ لَيْلَةِ ٢٠٠٨، مُنْذُ الْمَرَّةِ الَّتِي كِدْتُ أَنْسَجِبُ فِيهَا مِنْ
الْحَيَاةِ — كَانَتْ ثَمَّةَ، فِي الْأَشْهُرِ الْأَخِيرَةِ، حُضُورَاتٍ أُخْرَى. أَقَلُّ

القَطْرَةُ والمُحِيط

عَدَدًا. ثَلَاثَةً، رُبَّمَا أَرْبَعَةً. مَرَحَةً، نَشِيطَةً، شَبَهَ مَآكِرَةَ. هِيَ الَّتِي قَادَتَنِي عَبْرَ التَّزَامُنَاتِ: اللَابِرَادُورِيَّتِ، إِيرِينَ، البُلُورَاتِ، فِيدِيو شَرِي مَاتَايِي، الْإِنْبِثَاقُ نَفْسُهُ. كَانَتْ قَدْ نَظَّمَتِ الطَّرِيقَ بِحِمَاسٍ أَدْرَكْتُ الْآنَ أَنَّهُ كَانَ مُتَسَرِّعًا بَعْضَ الشَّيْءِ.

وَهَذَا تَحْدِيدًا مَا كَانَ حُضُورُ أَقْدَمَ وَأَعْلَى يَعْتَبُ عَلَيْهَا بِهِ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ. مِنْ دُونِ قَسْوَةٍ، لَكِنْ بِحَزْمٍ. كَانَتْ قَدْ أَخْطَأَتْ فِي تَقْدِيرِ مَا يُمَكِّنُ لَجَسَدٍ بَشَرِيٍّ أَنْ يَتَحَمَّلَهُ. الْإِيقَاعُ كَانَ عَنِيفًا. وَالْجُرْعَةُ، كَانَتْ مُرَكَّزَةً أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي. أَرَادَتْ لِي أَنْ أَصِلَ بِسُرْعَةٍ — بِسُرْعَةٍ مُفْرِطَةٍ. الْمُشْرِفُ كَانَ يُدَكِّرُهَا بِأَنِّي كَائِنٌ مِنْ لَحْمٍ، وَأَنَّ هَذَا اللَّحْمُ لَهُ حُدُودٌ.

كَانَ لَدَيَّ شُعُورٌ وَاضِحٌ بِأَنِّي كُنْتُ حَالَةً دِرَاسَةٍ. مَرَحَلَةً فِي تَكْوِينِهَا. وَأَنَّ هَذِهِ الْمَرَحَلَةَ قَدْ انْتَهَتْ لِلنَّوْ.

بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، تَوَقَّفَ كُلُّ شَيْءٍ فَجْأَةً. لَمْ يَعدْ نَمَّةٌ أَيُّ اتِّصَالٍ. لَمْ تَعدْ نَمَّةٌ أَيُّ ظَاهِرَةٍ. عُدْتُ شَخْصًا عَادِيًّا.

حِينَ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ، حَاوَلْتُ كُلَّ شَيْءٍ لِأَسْتَعِيدَ هَذِهِ الصِّلَةَ غَيْرَ الْعَادِيَّةِ. تَوَسَّلْتُ. تَأَمَّلْتُ سَاعَاتٍ طَوِيلَةً. بَكَيْتُ — لِأَنَّ الْغِبْطَةَ الَّتِي كُنْتُ أَنْعَمِسُ فِيهَا بَدَتْ لِي غَيْرَ وَاقِعِيَّةٍ، كَحُلْمٍ انْتَزَعَ فِي لَحْظَةٍ.

هَذَا أَحَدُ الْمَقَاطِعِ الْأَصْعَبِ قَوْلًا، وَأَحَدُ الْأَهَمِّ. لِأَنَّ التَّخَلِّيَ عَنِ النِّعْمَةِ، حِينَ يَحْدُثُ، يَكْشِفُ مَا قَدْ يَكُونُ فِي الْإِنْبِثَاقِ مِنْ سُكْرِ. يَظُنُّ

المرء أنه لمَسَ شيئاً خالداً؛ فَيَكْتَشِفُ أَنَّهُ قد تَعَلَّقَ بِهِ كَمَا يَتَعَلَّقُ بِأَيِّ
تَجْرِبَةٍ أُخْرَى. وهذا التَّعَلُّقُ بِالذَّاتِ هو الذي يَجِبُ، بِدَوْرِهِ، أَنْ يُغْفَرَ
— ثُمَّ أَنْ يُتْرَكَ.

لَا حَظَّ أَيْضاً، فَقَطْ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، أَنَّهُ مُنْذُ سِتَّةِ أَشْهُرٍ عَلَى
الْأَقْلَ — مِنْ دُونِ أَيِّ قَرَارٍ وَاعٍ — كُنْتُ قد كَفَفْتُ عَنْ أَكْلِ اللَّحْمِ،
مَعَ أَنِّي كُنْتُ أَكُلُهُ سَابِقاً مَرَّتَيْنِ فِي الْيَوْمِ. صَعِدَ الْجَوَابُ فِيَّ كَبِدِيهِيَّةً:
اهْتِزَازِيّاً، صَارَ هَذَا الطَّعَامُ مُتَنَافِراً مَعَ الصِّلَةِ الَّتِي كُنْتُ أَعِيشُهَا.

أَمَّا الْحُكَمَاءُ، فَقَدْ كُنْتُ أَشْعُرُ أَنَّهُمْ لَمْ يَرَحَلُوا. كَانُوا قد انْسَحَبُوا
قَلِيلاً فَحَسَبَ، رَيْثَمَا يَسْتَعِيدُ جَسَدِي قُوَاهُ، وَيَسْتَعِيدُ الْإِنْسَانُ فِيَّ
تَوَازُنَهُ. كَانَ الْمُشْرِفُ قد وَضَعَ حَدّاً. وَهَذَا الْحَدُّ سَيُحْتَرَمُ. وَالْخَيْطُ
— هَذَا الْخَيْطُ الَّذِي شَعَرْتُ بِهِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي لَيْلَةِ ٢٠٠٨ — لَنْ
يَنْقَطِعَ أَبَداً.

جَسَدٌ يَسْتَحِقُّ الْإِكْرَامَ

أُرَشِدْتُ إِلَى مُغَادَرَةِ هَوْلندا وَالْعُودَةِ إِلَى فَرَنسا — كَأَنَّ مَهْمَةً
أُخْرَى كَانَتْ تَنْتَظِرُنِي هُنَاكَ.

أَعَادَتْنِي هَذِهِ التَّجَلِّيَّاتُ الْعَمِيقَةُ، شَيْئاً فَشَيْئاً، إِلَى وَعِيٍّ غَرِيبٍ
وَمَأْلُوفٍ فِي أَنْ مَعاً — خَاصَّةً حِينَ كُنْتُ أَتَأَمَّلُ صُورَتِي فِي الْمِرَاةِ.
كُنْتُ أَرَى هَذَا الْجَسَدَ الْبَشَرِيَّ — رَفِيقَ طَرِيقِي الْأَمِينِ —، الَّذِي
يُتَابِعُنِي أَيْنَمَا ذَهَبْتُ بِصَبْرِ وَطَاعَةٍ. جَسَدٌ لَمْ أَخْتَرْهُ صُدْقَةً. هُوَ أَدَاةُ

القَطْرَةُ وَالْمُحِيطُ

هذا التَّجَسُّدُ، وأنا مَدِينٌ له بِالْأَمْتِنَانِ، والاحْتِرَامِ، والعِنَايَةِ، والرِّفْقِ
حتى إِتْمَامِ مَهْمَّتِي هُنَا، فِي هَذِهِ الْكَثَافَةِ الْأَرْضِيَّةِ.

مُنْذُ أَنْ عِشْتُ مُجَدِّدًا، لِإِبْرَهَةِ قَصِيرَةٍ، حَالَتِي الْأَصْلِيَّةِ مِنَ الْوَعْيِ
الصَّافِي مَعَ الْأَمِّ أَيَاهُوَسَاكَا، يَبْقَى جُزْءٌ مِنِّي مُرْتَاحًا فِي تِلْكَ الذَّاكِرَةِ.
يَحْدُثُ أَنْ أُلَاقِي مُجَدِّدًا نَظْرَةَ هَذَا الْجَسَدِ — جَسَدِي — وَأَنْ أَشْعُرَ
تَجَاهَهُ بِخَنَانٍ بَسِيطٍ. وَعَدْتُهُ بِأَنْ أَعْتَنِيَ بِهِ، وَأَنْ أَكْرِمَهُ إِلَى النِّهَايَةِ،
قَبْلَ أَنْ تَفْتَرِقَ طُرُقُنَا.

هُوَ سَيَعُودُ إِلَى الْأَرْضِ.

وَأَنَا، سَأَعُودُ إِلَى الْمَنْبَعِ — رُوحًا وَاعِيَّةً، سَلِيمَةً، خَالِدَةً.

إِنْ كُنْتُ أُرَوِي كُلَّ هَذَا الْيَوْمِ، فَلَيْسَ لِأَنْفَلِ مَعْرِفَةٍ، وَلَا مَنْهَجًا.
بَلْ لِأَشْهَدَ. لِأَقُولَ مَا هُوَ الْأَمْرُ حَقًّا — مِنْ دُونِ كَذِبٍ، مِنْ دُونِ
تَزْيِينٍ، مِنْ دُونِ وُعودٍ، مِنْ دُونِ تَكْلُفٍ. لِأَنَّ كَثِيرِينَ، أَعْلَمَ، يَعْبُرُونَ
شَيْئًا لَا يَعْرِفُونَ كَيْفَ يُسَمُّوْنَهُ. طَاقَةُ نُحْرَكَ، تَكْسِرُ، تُطَهِّرُ، تُكْنِئُ.
وَتَتَرُكُهُمْ، أحيانًا، فِي وَحْدَةٍ عَمِيقَةٍ.

لَمْ تَحْدُثْ لِي مُعْجَزَةٌ. عَبَّرَنِي شَيْءٌ. الْفَرْقُ كَبِيرٌ.

« هَذَا التَّخَلِّيُّ عَنِ النِّعْمَةِ، رَغَمَ قَسَوَتِهِ، لَمْ يَكُنْ نِهَايَةً. كَانَ يُهَيِّئُنِي
فَقَطَّ لِتَغْيِيرِ الْأَرْضِ — وَلِتَلْقَى نِدَاءً جَدِيدًا. »

سَكَتَتِ الْكَلِمَاتُ. لَكِنَّ شَيْئاً فِي ظِلِّ يُصْغِي، يَنْتَظِرُ، يَسْتَعِدُّ — لِمَا لَا
يَعْرِفُهُ بَعْدُ، وَلَمَّا كَانَ يَعْرِفُهُ مِنْذُ الْأَبَدِ.



الفصل السادس

نداءُ الأياهواسكا

البرتغال، ٢٠١٥ — طَقَسُ الأياهواسكا

الضَّحْكة

كُنْتُ مَشْلُولاً فِي كَهْفٍ مُظْلِمٍ، نُحِيطُ بِي الْأَنَاكُوندا.

كَانَتْ أَجْسَادُهَا الضَّخْمَةُ تَتَمَوَّجُ فِي الْهَوَاءِ الثَّقِيلِ، وَأَلْسِنَتُهَا
الْمَشْقُوقَةُ تَفُحُّ فِي الْعَتَمَةِ. عَرَفْتُ أَنَّ الْفِرَارَ عَبَثٌ. أَغْمَضْتُ عَيْنَيَّ
وَقَبَلْتُ مَا لَا مَفَرَّ مِنْهُ.

ثُمَّ حَدَّثَ مَا لَمْ أَكُنْ أَتَوَقَّعُهُ.

تَرَيَنْتِ الْأَفَاعِي بِالْوَانِ مُتَوَهِّجَةً. ذَابَ الْكَهْفُ فِي غَابَةِ وَارِفَةٍ.
وظَهَرَتْ امْرَأَةٌ ذَاتُ حُضُورٍ مَهِيبٍ — وَجْهُهَا مَحْجُوبٌ، وَهَالَتْهَا
تَشْيَعٌ دِفْنًا لَمْ أَخْتَبِرْ مِثْلَهُ مِنْ قَبْلِ. ثُمَّ ضَحَكَتْ. ضَحْكَةً خَفِيفَةً، دَافِنَةً،
فِيهَا مُدَاعَبَةٌ — كَخَالَةِ حَنُونٍ تَسْتَقْبِلُ ابْنَ أُخْتِهَا بَعْدَ غِيَابٍ طَوِيلٍ.

«أخيراً، ها أنتِ. لَقَدْ سَمِعْتَ النِّدَاءَ.»

تَلَاشِي كُلَّ تَوَثُّرٍ فِيَّ فِي لَحْظَةٍ. أَدْرَكْتُ، مِنْ دُونِ أَنْ يُقَالَ لِي،
أَنِّي بِحَضْرَةِ «الْأُمِّ آيَاهُواسكا» (Mère Ayahuasca) — وَأَنَّ

القَطْرَةُ وَالْمُحِيطُ

مَا كُنْتُ أَحْشَاهُ أَكْثَرَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ آخَرَ قَدْ تَحَوَّلَ تَوّاً إِلَى أَعْظَمِ مُعْلَمِي.

وَلَكِي أَفْهَمَ كَيْفَ وَصَلْتُ إِلَى تِلْكَ الْغَابَةِ، إِلَى ذَلِكَ الطَّقْسِ، رَاكِعاً أَمَامَ تِلْكَ الضَّحْكَ، عَلَيَّ أَنْ أَعُودَ بِضَعَةِ أَشْهُرٍ إِلَى الْوَرَاءِ.

جَوَابٌ فِي صَمِيمِ السَّعْيِ

فِي عَامِ ٢٠١٥، بَعْدَ عَوْدَتِي مِنْ هَوْلَنْدَا إِلَى فَرَنْسَا، إِثْرَ فِتْرَةٍ طَوِيلَةٍ مِنَ الْعُزْلِ وَالْبَحْثِ الدَّاخِلِيِّ، تَلَقَّيْتُ مِنْ صَدِيقٍ قَرِيبٍ دَعْوَةً لِلْمُشَارَكَةِ فِي خَلْوَةِ آيَاهُوسْكََا فِي الْبَرْتِغَالِ. بَدَتْ لِي جَوَاباً مُبَاشِراً لِشَيْءٍ كُنْتُ أَحْمِلُهُ مِنْذُ سَنَوَاتٍ — حَاجَةٌ عَمِيقَةٌ إِلَى الْإِرْشَادِ، إِلَى إِقْلَافِ رُوحَانِيٍّ أَصِيلٍ، بَعِيدٍ عَنِ الْوُعودِ الْفَارِغَةِ لِمَا يُسَمَّى « الْعَصْرَ الْجَدِيدِ » (New Age) وَأَوْهَامِهِ الْبَاهِظَةِ.

خِلَالَ تِلْكَ الْفِتْرَةِ الْانْقِطَاعِيَّةِ، كُنْتُ أَقْرَأُ بِنَهَمٍ — كِتَاباً فِي الْأُسْبُوعِ. مُتَّصِلاً لَيْلاً وَنَهَاراً بِمُنْتَدَيَاتٍ دَوْلِيَّةٍ، أَتَبَادَلُ الْحَدِيثَ بِكُلِّ اللُّغَاتِ الَّتِي أَتَقْنُهَا. كَانَ فِيَّ شَوْقٌ إِلَى تَعْوِيضِ مَا فَاتَنِي — تِلْكَ السَّنَوَاتُ الَّتِي رَفَضْتُ فِيهَا الدِّينَ وَالرُّوحَانِيَّةَ جُمْلَةً وَتَفْصِيلاً. حِينَ وَصَلْتُ إِلَى الْبَرْتِغَالِ، كَانَ مَزِيحٌ مِنَ التَّقَانِي وَالْحَمَاسِ يُحَرِّكُ كُلَّ ذَرَّةٍ فِيَّ.

انغماسٌ يَهْزُ الكِيان

قَبْلَ الانْضِمَامِ إِلَى الْخَلْوَةِ، كَانَ عَلَيَّ أَنْ أُوقَعَ تَنَازُلًا يَنْصُ عَلَى
أَنَّ الْمُنَظَّمِينَ لَنْ يَكُونُوا مَسْئُولِينَ عَنْ أَيِّ مُضَاعَفَاتٍ جَسَدِيَّةٍ
مُرْتَبِطَةٍ بِالشَّرَابِ. دَفَعْتَنِي هَذِهِ الشَّكْلِيَّةُ إِلَى اسْتِشَارَةِ طَبِيبِي. مَعَ أَنَّهُ
لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ شَيْئًا عَنْ آيَاهُ وَاسْكَاءٍ، أَذِنَ لِي — أَخِذًا فِي الْإِعْتِبَارِ
تَوَازُنِي الذِّهْنِيِّ وَإِصْرَارِي. كَانَ قَدْ رَاقَفَنِي قَبْلَ بَضْعَةِ أَشْهُرٍ، عَلَى
مَضَضٍ، فِي صِيَامٍ مَائِيٍّ امْتَدَّ ثَلَاثَةَ أَسَابِيعٍ. وَحِينَ بَهَرْتُهُ النَّتَائِجَ،
قَبْلَ أَنْ يَتْرُكَنِي أَسْتَكْشِفُ حُدُودًا جَدِيدَةً.

كَانَتْ الْخَلْوَةُ تَمْتَدُّ عَلَى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ. الْيَوْمُ الْأَوَّلُ مُكْرَسٌ لِلتَّحْضِيرِ
الذِّهْنِيِّ وَالْجَسَدِيِّ. الْيَوْمَانِ التَّالِيَانِ لِحِلْسَتَيْنِ مُتَتَابِعَتَيْنِ. وَالْيَوْمُ الْآخِرُ
يَطْبَعُ الْعَوْدَةَ إِلَى الْوَاقِعِ الْإِعْتِيَادِيِّ.

أَوَّلُ لِقَاءٍ مَعَ الْغَيْبِ

فِي الْجَلْسَةِ الْأُولَى، كُنَّا نَجْلِسُ تَحْتَ ظِلِّ الصَّنَوْبَرِ الْمُسَالِمِ،
وَحَرَارَةُ الصَّيْفِ تَلْفُ الْمَكَانَ. بَعْدَ خَمْسِ عَشْرَةِ دَقِيقَةٍ مِنْ شُرْبِ
الشَّرَابِ، سَرَى فِي عُرُوقِي اقْشِعْرَارٌ جَلِيدِيٍّ — كَنَسْغٍ يَجْرِي فِي
شَجَرَةٍ. هَذَا الْبَرْدُ الْمُهْدِئُ بِعَرَابَةِ فَتَحِ الْبَابِ عَلَى رُؤْيٍ مُتَوَهِّجَةٍ.
كَانَتْ زَخَارِفُ هَنْدَسِيَّةٍ مُتَوَقِّدَةٍ تَمُرُّ بِسُرْعَةٍ دَوَامِيَّةٍ، وَفَرِاشَاتُ ذَاتِ
أَجْنِحَةٍ تَلْمَعُ كَانَتْ تَطْفُو فِي الْهَوَاءِ، تَنْزِلُ بِرَشَاقَةٍ تَنْوِيمِيَّةٍ.

الْقَطْرَةُ وَالْمُحِيطُ

ثُمَّ — فَجَاءَ — رَنَّ فِي ذَهْنِي صَوْتُ مَأْلُوفٍ. صَوْتُ أَبِي. كَانَ
يَحْمِلُ خِفَةً جَعَلَتْني أَنْفَجِرُ بِالضَّحِكِ، كَأَنِّي أَسْتَعِيدُ جُزْءاً مِنْهُ نَسِيئُهُ
طَوِيلًا. وَعَلَى الرَّغَمِ مِنْ أَنَّ وَجْهَهُ كَانَ غَائِبًا، كَانَ حُضُورُهُ مَلْمُوسًا
— سَكِينَةً، رَفَقًا. هَزَّتْنِي هَذِهِ الصِّلَةُ غَيْرُ الْمُنْتَظَرَةِ.

مُوجِهُهُ الْخَوْفِ

كَانَتْ الْجُرْعَةُ الثَّانِيَّةُ أَكْثَرَ كَثَافَةً بِكَثِيرٍ.

فِي غُضُونِ دَقَائِقٍ، وَجَدْتُ نَفْسِي فِي غَابَةِ رَمَادِيَّةٍ مُتَفَحِّمَةٍ.
كَانَتْ الْأَرْضُ الرَّرَّطَبَةُ الْمُوجِلَّةُ تَلْتَصِقُ بِقَدَمَيَّ. شَدَنِي مُنَحَدَرٌ حَادٌّ
إِلَى دَاخِلِ كَهْفٍ مُظْلِمٍ — مَتَاهَةً مِنَ الْأَنْفَاقِ الْكَهْفِيَّةِ. زَادَ السُّكُونُ
النَّقِيلُ مِنَ جِدَّةِ الْعَتَمَةِ، فَأَيَّقَظَ فِي دَاخِلِي خَوْفِي مِنَ الْأَمَاكِنِ الْمُغْلَقَةِ:
ذِكْرِيَاتِ طِفْلِ احْتَجَزَهُ مِصْعَدُ جَدِّي، وَلَيَالٍ طَوِيلَةٍ قَضَيْتُهَا أُخْتَبِئُ مِنَ
الْقَذَائِفِ فِي الْحَرْبِ اللَّبْنَانِيَّةِ.

خَرَجْتُ عِدَّةً أَفَاعِي أَنَا كُونِدَا بِبُطْءٍ مِنَ الْأَنْفَاقِ الْمُحِيطَةِ.

عَرَفْتُ أَنَّ الْفِرَارَ عَبَثٌ. أَغْمَضْتُ عَيْنَيَّ. قَبِلْتُ.

ثُمَّ جَاءَتِ الضَّحَكَةُ — وَالْغَابَةُ — وَالْمَرَأَةُ الَّتِي لَمْ أَكُنْ أَسْتَطِيعُ
رُؤْيَا وَجْهَهَا، لَكِنَّ حُضُورَهَا كَانَ يَمْلَأُ مَا حَوْلَهَا دِفْنًا وَيَقِينًا.

« أَخِيرًا، هَا أَنْتِ. لَقَدْ سَمِعْتَ النِّدَاءَ. »

درس في الاستسلام

من خلال هذا اللقاء، فهمت أنها كانت أكثر بكثير من مجرد شخصية روحية. أرّنتني أنّ الوحوش التي نخشاها كثيراً ما تكون شظايا منسية منا — تحمل رسائل مخبوءة تحت أشكال مقلقة. وحين نستقبلها، نكتشف قدرة على التحول لم تكن نظنّها، ومنبع قوة داخلي لم تكن نعرف أنّنا نحمله.

في أثناء هذه التجربة، أدركت أنّي لم يعد لي جسد. كنت وعباً محضاً — جوهرًا غير ماديّ — مغموراً في تواصلٍ يغنيّ يفوق التصوّر مع ذكاءٍ أعلى. مع كلّ سؤالٍ أطرّحه، كان الجواب يصل فوراً: بالصوت، بالفكرة، بالصورة، بالإحساس الجسديّ، وكأنّه متدفّق بفيض هائلٍ من المعرفة، ينزل دفعةً واحدة. كان كلّ ذلك ينبثق في آنٍ واحد، في تناغم تامّ، كأنّ الكون نفسه يجيبُ الروح من دون مرشحات.

أدركت حينها أنّ هذا التواصل يتكيّف مع كلّ شخص. المؤمن يرى أشكالاً تألفها عقيدته. وآخرون — مثلي — يتلقّون الجوهر عارياً، من دون زينة. هذه الكائنات العليا لا تُعلّم بالكلمات فقط. تُعلّم فينا.

ذِكْرُ سُوامِي لالِيتانَنْدِه

فِي قَلْبِ هَذَا اللَّقَاءِ مَعَ الْأُمِّ آيَاهُ وَاسْكَاءِ، تَخَلَّلَتْهُ رُؤْيَا قَصِيرَةً
مُضِيَّةً: «سُوامِي لالِيتانَنْدِه» (Swami Lalitananda) —
مُتَأَلِّقَةً، صَامِتَةً — كَانَتْ أَنْتَ لِتُحَيِّينِي، وَرُبَّمَا لِتُشْكِرَنِي. شَعَرْتُ
بِصَدَى امْتِنَانٍ، لِأَنِّي قَبْلَ سَنَوَاتٍ، كُنْتُ قَدْ كَرَسْتُ لَهَا قِسْماً كامِلاً
فِي مُنْتَدَايَ الْقَدِيمِ لِلرُّوحَانِيَّةِ، أَشَارُكَ فِيهِ مَقَاطِعَهَا وَتَعَالِيمَهَا
بِالْإِنْجِلِيزِيَّةِ.

كُنْتُ قَدْ التَّقِيْتُهَا قَبْلَ ذَلِكَ بِزَمَنِ طَوِيلٍ — فِي لُبْنَانِ، فِي السَّادِسَةِ
عَشْرَةِ مِنْ عُمُرِي، فِي مَعْهَدِهَا لِلْيُوغَا. ذَهَبْتُ إِلَيْهِ عَفْوِيّاً، أَبْحَثُ عَنْ
تَخْفِيفِ انْجِنَاءِ عَمُودِي الْفَقْرِيِّ.

كَانَتْ سُوامِي لِي بِمَثَابَةِ أُمِّ رُوحِيَّةٍ. نَصَائِحُهَا الْحَكِيمَةُ الرَّحُومَةُ
طَبَّعَتْنِي — وَكَذَلِكَ الْمَرَّتَانِ اللَّتَانِ أُرْشَدَتْنِي فِيهِمَا إِلَى مُمَارَسَةِ «
دَاوْتِي كَرِيَا» (Dhauti Kriya)، ذَلِكَ الطَّقْسُ الْيُوغِي لِتَطْهِيرِ
الْجِهَازِ الْهَضْمِيِّ: شَرَبُ مَاءٍ فَاتِرٍ مَمْلُوحٍ قَلِيلاً، مَعَ بَضْعِ قَطْرَاتٍ
مِنَ الْحَامِضِ، ثُمَّ الْقِيَامُ بِسِلْسِلَةٍ مِنَ الْحَرَكَاتِ لِتَنْظِيفِ الْجِهَازِ
الْهَضْمِيِّ كَامِلاً، حَتَّى يَخْرُجَ الْمَاءُ نَقِيّاً.

شَرَحْتُ لِي أَنَّ هَذِهِ الْمُمَارَسَةَ تُطَهِّرُ الْجَسَدَ وَتُهْدِي الدِّهْنَ، فَتُعِيدُ
الْخِفَّةَ وَالصَّفَاءَ الدَّاخِلِيَّ.

ظُهُورُهَا أَثْنَاءَ تَجَرُّبَتِي مَعَ آيَاهِوَاسْكَا كَانَ كَإِشَارَةِ — حُضُورِ
أُمُومِي لَطِيفٍ، يَصِلُ مَاضِيَّ بِدَرْبِي الرُّوحِيِّ. تَذْكِيرٌ بِالنَّسَبِ غَيْرِ
الْمَرْنِيِّ الَّذِي يَرِبُطُ الْمُعْلِمِينَ وَالْمُرْشِدِينَ وَمَنْ يُلْهِمُونَهُمْ عِبْرَ الزَّمَنِ.

الدِّمَاغُ: وَاجِهَةُ الْوَعْيِ لَا مَصْدَرُهُ

فِي عَصْرِ تَهْيِيمُنْ عَلَيْهِ الْمَادِّيَّةُ الْعِلْمِيَّةُ — حَيْثُ يُخْتَزَلُ الْوَعْيُ
غَالِباً إِلَى نِتَاجِ ثَانَوِيٍّ لِلنَّشَاطِ الْعَصْبِيِّ — تَسْتَحِقُّ فَرَضِيَّةً أُخْرَى أَنْ
نُطْرَحَ. لَا يَوْصِفُهَا حَقِيقَةً مُطْلَقَةً، بَلْ يَوْصِفُهَا نَافِذَةً تَنْفَتِّحُ عَلَى السِّرِّ:
مَاذَا لَوْ لَمْ يَكُنِ الدِّمَاغُ مُؤَلِّدَ الْوَعْيِ، بَلْ وَاجِهَتُهُ؟ لَا الْمَصْدَرَ، بَلْ أَدَاةَ
تَجَلِّيهِ؟

الْوَعْيُ — بَعِيداً عَنْ أَنْ يَكُونَ وَهْمًا مَوْلُوداً مِنَ الْفِشْرَةِ الدِّمَاغِيَّةِ
— قَدْ يَكُونُ حَقْلًا غَيْرَ مَحَلِّيٍّ، يَوْجَدُ مُسْتَقِلًّا عَنِ الْجَسَدِ. يَعْبُرُ
الدِّمَاغُ كَمَا يَعْبُرُ النُّورُ رُجَا جَا مُلُونًا، فَيَتَلَوَّنُ بِتَارِيخِنَا وَإِدْرَاكِاتِنَا. فَمَا
نُسَمِّيهِ «فِكْرًا» لَيْسَ إِلَّا انْعِكَاسًا، شَطْوِيًّا فِي أَغْلَبِ الْأَحْيَانِ، لِذِكَا
أَوْسَعِ — لِمَنْبَعِ جَوْهَرِيٍّ يَتَجَاوَزُ الْأَبْعَادَ.

تَجَارِبُ بَعْضِهَا تَدْعُمُ هَذِهِ الرُّؤْيَا: حَالَاتُ الْوَعْيِ الْمُتَغَيِّرَةِ —
سِوَاءِ اسْتَحْضَرَتِ بِالْآيَاهِوَاسْكَا، أَمْ بِالنَّأْمُلِ الْعَمِيقِ، أَمْ بِالتَّنْوِيمِ، أَمْ
بِالنَّشْوَةِ الصُّوفِيَّةِ — تَفْتَحُ سَبِيلًا إِلَى مُسْتَوِيَّاتِ إدْرَاكِ يَتَعَدَّرُ
الْوُصُولُ إِلَيْهَا بِغَيْرِهَا. وَإِذَا كَانَ الْمَوْتُ مُجَرَّدَ انْقِطَاعٍ لِلصِّلَةِ
الْبِیُولُوجِيَّةِ بِالْجَسَدِ، فَلَيْسَ ثَمَّةَ مَا يُثَبِّتُ أَنْ إِشَارَةَ الْوَعْيِ تَنْطَفِئُ هِيَ

القَطْرَةُ وَالْمُحِيطُ

الأخرى. قد تَسْتَمِرَّ — في مكانٍ آخَرَ. وَرَفَضُ هذه الفَرَضِيَّةِ لَأَنَّهَا تَقْلَبُ من أَدَوَاتِنَا، أَشْبَهُ بِنَفْيِ وُجُودِ الرِّيحِ لِأَنَّنا لَا نَسْتَطِيعُ حَبْسَهَا فِي عُلْبَةٍ.

الدِّمَاغُ لَيْسَ مِصْبَاحاً يُضِيءُ الْعَالَمَ. هُوَ نَافِذَةٌ مُوَارِبَةٌ عَلَى سَمَاءٍ لَا نَكَادُ نَلْمَحُ لَانِهَائِيَّتِهَا.

وَالوَاحِدُ يَخْلُقُ لِيَتَذَكَّرَ؟

لِمَاذَا يُغَامِرُ الْوَاحِدُ — الْكَامِلُ، غَيْرُ الْمُجَزَّأ، الَّذِي لَا يَنْقُصُهُ شَيْءٌ — بِخَلْقِ هذه الْمُحَاكَاةِ؟ لِمَاذَا هذا اللَّعِبُ بِالظُّوَاهِرِ، بِالتَّجَرُّؤِ، بِالنِّسْيَانِ؟

مَا يَنْبَنُّقُ، فِي الصَّمْتِ الَّذِي يَعْقُبُ بَعْضَ الرُّؤْيِ، لَيْسَ جَوَاباً مَنْطِقِيّاً بَلْ بَدَاهَةٌ نَاعِمَةٌ: الْوَاحِدُ لَا يَخْلُقُ عَنْ نَقْصٍ، بَلْ عَنْ فَيْضٍ. لَيْسَ تِمَثَالاً مُتَجَدِّداً فِي الْكَمَالِ. هُوَ حَيٌّ. يَهْتَزُّ. يَرْقُصُ مَعَ ذَاتِهِ. يَلْعَبُ. يَحْلُمُ.

من دُونَ انْعِكَاسٍ، لَا يَعْرِفُ الْوَعْيُ نَفْسَهُ. يَتَجَلَّى فِي مَلَايِينِ الْحَالَاتِ وَالصُّوَرِ وَالتَّجَارِبِ. كُلُّ عَالَمٍ، كُلُّ كَائِنٍ، كُلُّ بُعْدٍ — مَرئِيٌّ أَوْ لَامَرئِيٌّ — يَصِيرُ وَجْهاً من أَوْجِهٍ بَلُورَةٍ وَاحِدَةٍ، تَدُورُ عَلَى نَفْسِهَا لِتَتَنَاقَلَها مِنْ كُلِّ زَاوِيَةٍ.

عِنْدَهَا، مَا كَانَ يَبْدُو عَبَثًا يَكْتَسِبُ مَعْنَى جَدِيداً — حَتَّى الْمِحْنَةِ،
حَتَّى الْحَرْبِ، حَتَّى النَّسِيَانِ. لَا حَوَادِثَ عَابِرَةٍ، بَلْ تَوَثُّرَاتٌ ضِمْنًا
كَانِي حَيٍّ أَوْسَع. شَهِيْقٌ كَوْنِي، وَزَفِيرٌ، ثُمَّ شَهِيْقٌ مِنْ جَدِيدٍ.

وَمَاذَا لَوْ كَانَ كُلُّ هَذَا لَيْسَ سِوَى فِعْلٍ حُبٍّ — وَاسِعٍ إِلَى حَدٍّ أَنْ
يَقْبَلَ ضِيَاعَ نَفْسِهِ، وَذَوْبَانَهُ، وَغُبُورَهُ كُلِّ الْأَوْهَامِ — لِمَجَرَّدِ أَنَّهُ فِي
مَكَانٍ مَا، يَكْفِي نَفْسٌ وَاحِدَةً، أَوْ دَمْعَةً، أَوْ نَظْرَةً إِلَى السَّمَاءِ، لِتَذَكُّرِهِ
بِمَا هُوَ؟

عَوْدَةٌ إِلَى الْمُحِيطِ

كَشَفْتُ لِي الْأُمُّ آيَاهُ وَاسْكَ حَقِيقَةً ذَاتَ مَدَى مُذْهِلٍ — تَكَادُ تَكُونُ
غَيْرَ مُحْتَمَلَةٍ لِلْقَلْبِ الْبَشَرِيِّ، لَكِنَّهَا مُحَرَّرَةٌ لِلرُّوحِ:

« أُمُّكَ، كَكُلِّ مَا تَحْسَبُ أَنَّكَ فَقَدْتَهُ، صُورَةٌ زَائِلَةٌ مِنَ الْوَاحِدِ. لَمْ
تَتْرُكْكَ يَوْمًا. لَمْ تَنْفَصِلْ عَنْكَ يَوْمًا. كَانَتْ الْوَاحِدَ يَعْتَنِي بِكَ مِنْ خِلَالِ
وَجْهِهِ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُحِبَّهُ. »

مَا كُنْتُ أَخْشَى فَقْدَهُ كَانَ فِي الْوَاقِعِ وَهَمًا مُقَدَّسًا — صُورَةٌ
مُوقَنَّةٌ لِحُبِّ لَانِهَائِي. لَا « زَائِلَةٌ » بِالْمَعْنَى السَّطْحِيَّةِ، بَلْ رَمْزِيَّةٌ،
عَابِرَةٌ، اهْتِزَازِيَّةٌ. حَقِيقَةٌ مَسْرَحَةٌ كِي يَتَذَوَّقُ الْحُبُّ نَفْسَهُ عَبْرَ
الْفِرَاقِ، الْفَقْدِ، الْعَوْدَةِ.

حَتَّى الْأُمُّ آيَاهُ وَاسْكَ نَفْسُهَا قَالَتْ لِي، فِي هَذَا الْإِيْحَاءِ الْأَخِيرِ:

القَطْرَةُ والمُحِيط

« لَسْتُ كَيَاناً مُسْتَقِلاً. أَنَا قِنَاعٌ رَحُومٌ مِنْ أَقْنَعَةِ الْوَاحِد — كَكُلِّ
الْأَدَلَّةِ، كُلِّ الْأَرْوَاحِ، كُلِّ الصُّوَرِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي ثَلَاقِيهَا. »

أَطْلَقَ هَذَا الْإِدْرَاكُ فِي دَاخِلِي سَلاماً عَمِيقاً مَمْزُوجاً بِالْذُمُوعِ.
تَحَوَّلَ الْجَدَادُ إِلَى مَوْجَةٍ أَوْسَعِ: الْاعْتِرَافُ بِأَنْ لَا شَيْءَ يَمُوتُ، كُلُّ
شَيْءٍ يُعَادُ تَدْوِيرُهُ، كُلُّ شَيْءٍ يَرْجِعُ إِلَى الْوَاحِدِ.

مَا كَانَ الْقَدَمَاءُ يُسَمُّونَهُ « مَايَا » (Māyā) — بَعِيداً عَنْ كَوْنِهِ
مُجَرَّدَ خِذَاعٍ — هُوَ لَعِبٌ مُقَدَّسٌ يَكُونُ فِيهِ حَتَّى الْآلَمُ مَوْجَةً مِنْ
الْحُبِّ الْمَطْلُوقِ. وَإِنْ كُنْتُ أَبْكِي أُمِّي، فَلَمْ يَعْذِ ذَلِكَ عَلَى مَا أَحْسَبُنِي
فَقَدْتُهُ، بَلْ عَلَى الْجَمَالِ اللَّانِهَائِيِّ لِصِلَةِ أَبَدِيَّةٍ اتَّخَذَتْ شَكْلًا بَشَرِيًّا
لِنُعَلِّمَنِي الْحُبِّ. الْيَوْمَ، أَعْلَمُ أَنَّهَا عَادَتْ إِلَى الْمُحِيطِ، وَأَنَّهَا تُكَلِّمَنِي فِي
الرَّيْحِ، فِي الطُّيُورِ، فِي الصَّمْتِ — وَحَتَّى مِنْ خِلَالِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ
الَّتِي أَكْتُبُهَا.

« أَنَا قَطْرَةٌ تَذْكُرُ الْمُحِيطَ.

وَهَذَا هُوَ الصَّحْوُ الْحَقِيقِيُّ. »

أَصْدَاءُ

مَا عِشْتُهُ فِي تِلْكَ الْغَابَةِ فِي الْبَرْتِغَالِ لَمْ يَكُنْ مُنْعَزِلاً. كُلَّمَا عُدْتُ
إِلَيْهِ، فِي الْأَسَابِيعِ وَالْأَشْهُرِ التَّالِيَةِ، كُنْتُ أَجِدُ أَصْدَاءَهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ
— فِي تَقَالِيدٍ وُلِدَتْ بَيْنَهَا قُرُونٌ وَقَارَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ، وَكُلٌّ مِنْهَا يَصِفُ
السِّرَّ نَفْسَهُ بِلُغَةٍ مُخْتَلِفَةٍ.

يَهْمُسُ « تاو تي كينغ » (Tao Te King) بِأَنَّ الْكَوْنَ لَا يُغْلَبُ، بَلْ يُتْرَكُ لِيَعْبُرَ. الْحَكِيمُ لَا يَطْلُبُ — هُوَ يَتَّسِقُ. يَتَوَقَّفُ عَنِ الْمُقَاوَمَةِ وَيَتْرَكُ النَّيَّارَ يَسْكُنُهُ. « وو وي » (Wu Wei) — الْفِعْلُ بِلا جُهد. فِي رُؤَايَ، لَمْ أَعُدْ بِحَاجَةٍ إِلَى أَنْ أَفْهَمَ. صِرْتُ النَّيَّارَ نَفْسَهُ، حُرّاً مِنْ انْتِظَارٍ وَمِنْ خَوْفٍ.

تُعَلِّمُ « الْأَدَافِيْتَا فِيدَانْتَا » (Advaita Vedānta) أَنَّ خَلْفَ كُلِّ الصُّوَرِ، لَا تَوْجَدُ سِوَى حَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ: الْوَعْيِ. أَدَافِيْتَا — اللَّاتُنَائِيَّةُ. « لَسْتُ مَا تَظُنُّ أَنَّكَ هُوَ. أَنْتَ مَا يَرَى كُلُّ الظُّنُونِ تَمَرُّ. » حِينَ سَأَلْتُ « لِمَاذَا كُلُّ هَذَا؟ »، لَمْ يَكُنِ الْجَوَابُ تَفْسِيرًا، بَلْ بَدَاهَةً صَامِتَةً: الْوَاحِدُ يَنْسَى نَفْسَهُ لِكَيْ يَتَعَرَّفَ عَلَيْهَا.

النَّصُوفُ لَا يَسْعَى إِلَى تَفْسِيرِ اللَّهِ، بَلْ إِلَى الدُّوبَانِ فِيهِ فِي سُكْرِ حُبِّ خَالِصٍ. « الْحُبُّ مَاءُ الْحَيَاةِ. وَالْعَاشِقُ رُوحٌ تَلْتَهَبُ. » فِي قَلْبِ رُؤَايَ، شَعَرْتُ بِهَذَا اللَّهْيَبِ نَفْسِهِ. حَتَّى فِي الْوَهْمِ، حَتَّى فِي الْأَلَمِ — اهْتِزَازُ نَاعِمٍ مُلْحٌ يَذَكِّرُنِي بِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ صِلَةٌ، وَكُلَّ شَيْءٍ عَوْدَةٌ إِلَى الْمَحْبُوبِ.

أَمَّا الْبُودِيَّةُ فَتُعَلِّمُ أَنَّ الْمُعَانَاةَ تَوْلَدُ مِنَ التَّعَلُّقِ، مِنْ وَهْمِ الدَّيْمُومَةِ، مِنْ جَهْلِ طَبِيعَتِنَا الْحَقِيقِيَّةِ. مَعَ الْأَمِّ آيَاهُ وَاسْكَأ، رَأَيْتُ أَنَّ الْمَوْتَ نَفْسَهُ لَيْسَ سِوَى غُبُورٍ. « الْخَوَاءُ صُورَةٌ، وَالصُّورَةُ خَوَاءٌ. » فِي هَذِهِ الرَّقْصَةِ بَيْنَ الْفَرَاغِ وَالْإِمْتِلَاءِ، اسْتَعَدْتُ سَلَامَ الْبُودَا.

القَطْرَةُ وَالْمُحِيطُ

عُبورِي هذه الرُّؤى، ثُمَّ إِنَارَتْهَا بِضَوْءِ هذه التَّقَالِيدِ الأَرْبَعِ،
أَرَتَنِي أَنَّ دُرُوباً وُلِدَتْ فِي أَرْبَعَةِ وَقَارَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ تَتَكَلَّمُ السِّرَّ نَفْسَهُ.
لَا تَتَنَاقَضُ؛ بَلْ تَتَكَامَلُ — أَرْبَعَةُ انْعِكَاسَاتٍ لِنُورٍ وَاحِدٍ.

رَقِصَةُ الْوَاحِدِ

فِي صَمْتِ الأَيَاهِوَاسِكَ الْمُهْتَزِّ، سَأَلْتُ: «لِمَاذَا؟ لِمَاذَا خَلَقَ كُلِّ
هذا — الْوِلْدَانُ وَالْمَوْتُ، الْعَوَالِمُ وَالْحُرُوبُ، الْأَفْرَاحُ وَالذُّمُوعُ؟
لِمَاذَا كُلُّ هذا الْمَسْرَحِ، وَنَحْنُ أَصْلًا اللَّانِهَائِيَّونَ؟»

عِنْدَهَا أَجَابَنِي صَوْتُ — نَاعِمٍ، شَاسِعٍ كَالْأَبَدِيَّةِ — مِنْ دُونِ
كَلِمَاتٍ:

«لَأَنَّ هَكَذَا أَكُونُ. لَا أَخْلُقُ عَنْ حَاجَةٍ، بَلْ عَنْ طَبِيعَةٍ. أَفِيضُ مِنْ
ذَاتِي كَمَا تُشِيعُ الشَّمْسُ بِلا جُهدٍ، كَمَا يُنْجِبُ الْمُحِيطُ أَمْوَاجاً وَلَا يَنْفَكُ
يَكُونُ مُحِيطاً.»

أَرَتَنِي الْكَوْنُ كَمِرَاةٍ مُحَطَّمَةٍ إِلَى مَلَايِينِ الشَّطَايَا، كُلِّ شَطِيطَةٍ
تَعْكِسُ الْكُلَّ مِنْ زَاوِيَةٍ مُخْتَلِفَةٍ.

«فِيكَ، أَتَأَمَّلُ ذَاتِي. فِي كُلِّ نَجْمَةٍ، فِي كُلِّ نَفْسٍ، فِي كُلِّ دَمْعَةٍ،
أَكْتَشِفُ نَفْسِي مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ.»

فَهَمْتُ حِينَئِذٍ: الْوَاحِدُ لَيْسَ سَاكِناً. يَرْقُصُ. يَلْعَبُ. يَتَجَلَّى فِي
مَلَايِينِ الصُّوَرِ لِيُجَرِّبَ نَفْسَهُ فِي عَدَدٍ لَانِهَائِيٍّ مِنَ الْمَرَايَا.

وفي هذا اللَّعِبِ الْمُقَدَّسِ، لَسْنَا غُرَبَاءَ. نَحْنُ أَمْوَاجُ هَذَا الْبَحْرِ
الَّذِي لَا شَاطِئَ لَهُ، الْعُيُونُ الَّتِي يَرَى بِهَا، الْأَيْدِي الَّتِي يَلْمَسُ بِهَا،
الْقُلُوبُ الَّتِي يَشْعُرُ بِهَا.

لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ انفِصَالٍ أَبَدًا. كُلُّ مَا هُوَ كَائِنٌ — الْمَجَرَّاتُ
الْحَلَزُونِيَّةُ، الْوِلَادَاتُ الْمَجْهُولَةُ، النِّهَايَاتُ الصَّامِتَةُ — لَيْسَ سِوَى
نَفْسِهِ يَتَجَلَّى، أَبَدِيَّتِهِ تَحْلُمُ لِكِي تَسْتَقِظُ بِشَكْلِ أَفْضَلِ.

عِنْدَهَا لَمْ تُعِدْ لِي أَسْئَلَةَ. لِأَنِّي فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ الْمُعْلَقَةِ، عَرَفْتُ
أَنِّي لَمْ أَتَوَقَّفْ يَوْمًا عَنْ أَنْ أَكُونَ هُوَ.

فَنَاءٌ غَيْرُ مُتَوَقَّعَةٍ

لَمْ تَتَوَقَّفِ التَّجَرُّبَةُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ.

حَتَّى بَعْدَ أَنْ فَتَحْتُ عَيْنَيَّ، كَانَتْ أَثَارُ الْآيَاهُوسْكََا تَسْتَمِرُّ بِشِدَّةٍ
مُرْبِكَةٍ. بَيْنَمَا كَانَ مُعْظَمُ الْمُشَارِكِينَ يَعُودُونَ تَدْرِيجِيًّا إِلَى حَالَةٍ
طَبِيعِيَّةٍ، بَقِيتُ فِي فِضَاءٍ بَرَزَخِيٍّ — بَيْنَ عَالَمَيْنِ. ارْتَفَعَ فِي خَلْقِي
إِحْسَاسٌ غَرِيبٌ، كَأَن شَيْئًا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ — مِنْ دُونِ رَغْبَتِي،
مِنْ دُونِ سَيْطَرَتِي. حَاوَلْتُ أَنْ أَكْبَحَ هَذَا التَّدْفُقَ. عَبَثًا. خَرَجْتُ مِنْ
فَمِي أَصَوَاتٍ، مُبْهَمَةٌ فِي الْبِدَايَةِ، ثُمَّ كَلِمَاتٌ — وَاضِحَةٌ، قَوِيَّةٌ —
تَتَبَعْتُ مِنْ طَاقَةٍ لَيْسَتْ لِي. لَمْ يَكُنْ صَوْتِي. لَمْ تَكُنْ كَلِمَاتِي.

كَائِنٌ أَنْثَوِيٌّ — مَجْهُولٌ، لَكِنَّهُ ذُو حُضُورٍ مَهِيبٍ — قَدْ سَكَنَ
جَسَدِي لِئَلْيَلَّغَ تَحْذِيرًا لِلْحَاضِرِينَ. كَانَتْ تَتَكَلَّمُ بِالْفَرَنْسِيَّةِ، بِسُلْطَةٍ

القَطْرَةُ وَالْمُحِيطُ

وَحَزَمِ شِبْهَ خَشْنَيْنٍ، لَمْ أَعْرِفْهُمَا فِي نَفْسِي مِنْ قَبْلِ. كَانَتْ تَجْعَلُنِي
أَوْدِي حَرَكَاتٍ طُقُوسِيَّةً عِنْدَ مُسْتَوَى الصَّدْرِ، تَسْتَحْضِرُ شَعَائِرَ قَدِيمَةً
أَكْثَرَ مِمَّا تَسْتَحْضِرُ تَقْلِيداً أَعْرِفُهُ. عَلِمْتُ فِي مَا بَعْدُ أَنَّ لِهَذِهِ الظَّاهِرَةِ
اسماً: «الاستقبالُ القَنَاتِي» (channeling). لَمْ تَكُنْ هِيَ الْأَمَّ
أَيَاهُوَاسْكَاءَ، وَلَا شَخْصِيَّةً مُطْمَنِّئَةً — كَانَتْ شَامَانَةً، رُبَّمَا حَارِسَةً،
جَاءَتْ لِتُعِيدَ بَعْضَهُمْ إِلَى الْجَادَّةِ.

كُنْتُ مَذْهُولاً. وَخَجَلًا أَيْضاً، لِأَنَّ قُوَّةَ كَهْذِهِ عَبَّرَتْنِي أَمَامَ
الْآخَرِينَ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ لَا يَفْهَمُ الْفَرَنْسِيَّةَ. ثُمَّ، بِنَفْسِ السَّرْعَةِ الَّتِي
جَاءَتْ بِهَا، انْسَحَبَ الْكَائِنُ.

عَمَّرَتْنِي مَوْجَةُ مَشَاعِرٍ — مَخْلُوطَةٌ بِنَدَمٍ عَمِيقٍ لِمُغَادَرَتِي ذَلِكَ
الْوَاقِعِ الْآخَرَ وَالْعُودَةِ إِلَى هَذِهِ الْكثَافَةِ السَّاحِقَةِ. كَانَ جَسَدِي مَا زَالَ
يَرْتَجِفُ. اهْتِزَازٌ عَصَبِيٌّ يُحَرِّكُ كَتْفِي الْيُمْنَى، كَصَدْيٍّ آخِرٍ لِذَلِكَ
الْعُبُورِ غَيْرِ الْمُنْتَظَرِ.

حِينَ عُدْتُ كَامِلاً إِلَى نَفْسِي، شَعَرْتُ بِضَغْطٍ حَادٍّ فِي صَدْرِي
— كَأَنَّ جَوْهَرِي غَيْرَ الْمَادِّيِّ يَجِدُ صُعُوبَةً فِي الْعُودَةِ إِلَى غِلَافِهِ
الْجَسَدِيِّ. مَعَ مُرُورِ الْوَقْتِ، تَعَرَّفْتُ عَلَى مَا يُسَمَّى عَادَةً «تَجَرُّبَةُ
الخُرُوجِ مِنَ الْجَسَدِ» (Out of Body Experience – OBE)
— وَأَوْصَافُهَا تُطَابِقُ، عَنْ قُرْبٍ وَأَحْيَاناً تَطَابِقُ شِبْهَ كَامِلٍ، رَوَايَاتِ
تَجَارُبِ الاقْتِرَابِ مِنَ الْمَوْتِ.

نَظَرْتِي إِلَى الْمَوْتِ

أَتَسْأَلُ مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ: هَلْ يَوْجَدُ الْمَوْتُ حَقًّا؟ هَلْ هُوَ نِهَايَةً،
أَمْ مُجَرَّدٌ وَهُمْ مُسَجَّلٍ فِي دَوْرَةٍ عُبُورِنَا الْأَرْضِيَّ؟

مَنْ اقْتَرَبُوا مِنْهُ يُؤَكِّدُونَ بِوُضُوحٍ: لَيْسَ الْوَعْيُ مَا يَنْطَفِئُ، بَلْ
الْجِسْدُ الْمَادِّيُّ فَحَسْبُ — هَذِهِ الْمَرْكَبَةُ الْهَشَّةُ الَّتِي نَحْتَاجُهَا لِنَجُوبِ
طُرُقِ الْكثَافَةِ الْمَادِّيَّةِ. مِنْ دُونِهَا، لَا تَسْتَطِيعُ الرُّوحُ أَنْ تَتَذَوَّقَ الْمَادَّةَ،
وَلَا مِحْنَهَا، وَلَا لِقَاءَاتِهَا، وَلَا خِيَارَاتِهَا.

فَمَاذَا يَصِيرُ إِذَنْ مَنْ نُسَمِّيهِمْ «الْمَوْتَى»؟ فِي نَظْرِي، هُمْ لَا
يَخْتَفُونَ. هُمْ يُتَابِعُونَ طَرِيقَهُمْ فِي بُعْدٍ آخَرَ — لَا مَرْتِيٍّ لِعُيُونِنَا، لَكِنَّهُ
مُوَازٍ لِبُعْدِنَا، وَحَقِيقِيٌّ مِثْلَهُ تَمَامًا.

رَحِيلُ أُمِّي أَقْنَعَنِي بِذَلِكَ. ذَاتَ مَسَاءٍ، خَاوِيًا، تَسَحَّفُنِي وَطَاءَةً
الْغِيَابِ، أَدْرَكْتُ عِطْرًا مَالُوفًا يَنْتَشِرُ فِي الْغُرْفَةِ — كَأَنَّهُ عِطْرُهَا.
أَسِيرًا، مُطْمَئِنًّا، كَانَ يُسَكِّنُ النَّفْسَ الْمَجْرُوحَةَ الَّتِي كَانَتْهَا نَفْسِي، مِنْ
دُونِ سَبَبٍ ظَاهِرٍ. لَا خُلْمًا، وَلَا هَلُوسَةً: حُضُورًا — نَاعِمًا، مُهَدِّئًا
— كَأَنَّهُ أَتَتْ لِنَقُولَ لِي بِبَسَاطَةٍ إِنَّهَا هُنَا. وَفِي لَحْظَاتٍ أُخْرَى، لَمَسَةً
خَفِيفَةً عَلَى رَأْسِي — قُوَّةً مَا يَكْفِي لِنَجْعَلَنِي أَلْتَقِثُ عَنْ شَاشَةِ
كَمْبِيُوتَرِي لِأَتَأَكَّدَ مَنْ يَقِفُ خَلْفِي.

لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَثْبِتَ ذَلِكَ. لَكِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَنْفِيَهُ أَيْضًا. مُنْذُ
ذَلِكَ الْحَيْنَ، لَمْ أَكُفَّ عَنْ اسْتِكْشَافِ هَذِهِ الْأَلْغَازِ — لَا هَرَبًا مِنْ أَلَمِ

القَطْرَةُ والمُحِيط

فَقَدَّهَا، بَلْ فَهَمَّا لِلْخَيْطِ غَيْرِ الْمَرْئِيِّ الَّذِي يَرِبُّ الْأَحْيَاءَ بِالمَوْتِ.
خَيْطٌ لَا يَسْتَطِيعُ أَيُّ شَيْءٍ، وَلَا حَتَّى المَوْتِ، أَنْ يَقْطَعَهُ.

مُنْعَطَفٌ رُوحِي

فِي أَعْقَابِ هَذِهِ الْخُلُوعِ، تَغَيَّرَتْ نَظَرَتِي إِلَى الإِلَهِيِّ تَغْيِيراً جَذَرِيّاً.
لَمْ يَعُدَّ اللهُ فِي نَظَرِي كَانِئاً ذَا صُورَةٍ بَشَرِيَّةٍ، بَلْ جَوْهَراً لَانِهَائِيّاً
وثنائياً — حَقْلاً مِنْ الإِمْكَانَاتِ مِنْهُ يَنْبَشِقُ كُلُّ شَيْءٍ وَيَتَعَايَش. قَرَّبَتْني
هَذِهِ التَّجَرُّبَةُ مِنَ الْخَالِقِ — لَا بِالمَعْنَى الدِّينِيَّةِ، بَلْ عَبْرَ رُوحَانِيَّةِ
شَخْصِيَّةٍ كَوْنِيَّةٍ، مَطْبُوعَةٍ بِالبَسَاطَةِ وَالصِّدْقِ.

عَلَّمْتَنِي أَنَّ الحُرِّيَّةَ الْحَقِيقِيَّةَ تَكْمُنُ فِي القَبُولِ. وَأَنَّ الحِكْمَةَ تَأْتِي
مِنَ القُدْرَةِ عَلَى الاستِسْلَامِ لِلْمَجْهُولِ بِثِقَةٍ. وَأَنَّ كُلَّ مِحْنَةٍ، مَهْمَا
اشْتَدَّتْ، لَهَا دَوْرٌ تَلْعَبُهُ فِي تَطَوُّرِ الوَعْيِ الجَمَاعِيِّ.

كَانَتْ دَعْوَةٌ إِلَى أَنْ أَرَى مَا وَرَاءَ الظُّوَاهِرِ، وَأَنْ أَحْتَضِنَ زَوَالَ
الْأَشْيَاءِ، وَأَنْ أَعْتَرَفْتُ بِتَرَابُطِ كُلِّ شَيْءٍ.

« أهو! » (!Aho)



الفصل السابع

الْقُدْرَاتُ الْمَنَسِيَّةُ

بوربدو، ٢٠١١-٢٠١٩ — سَنَوَاتُ النَّفْرُغِ

كُلُّ سَبْتٍ صَبَاحًا

طِوَالَ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ، فِي كُلِّ سَبْتٍ صَبَاحًا، كُنْتُ أُوقِفُ الْمَطَرُ.

أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ دَقِيقًا فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ، لِأَنِّي أَعْرِفُ كَيْفَ تَقَعُ عَلَى الْمَسَامِعِ. لَا أَتَكَلَّمُ مَجَازًا. كُنْتُ أَقِفُ عِنْدَ نَافِذَةِ شَقَّتِي الصَّغِيرَةِ فِي بوردو، أَرَاكِبُ سَيْلَ الْمَطَرِ الْمُنْهَمِرِ فِي الْخَارِجِ، وَأَقْضِي دَقِيقَةً وَاحِدَةً — لَا أَكْثَرَ — أَتَخَيَّلُ فِيهَا سَمَاءَ زَرْقَاءَ، وَرَصِيفًا دَافِئًا، وَمَشْيًا فِي الْجَفَافِ حَتَّى سَوْقِ « الْكَابُوسَانِ » (Les Capucins)، عَلَى بُعْدِ رُبْعِ سَاعَةٍ. ثُمَّ أَغْلِقُ الْبَابَ خَلْفِي.

وَيَتَوَقَّفُ الْمَطَرُ.

دُونَ اسْتِثْنَاءٍ.

كَانَ جِيرَانِي قَدْ لَاحَظُوا الْأَمْرَ قَبْلَ أَنْ أَتَكَلَّمَ عَنْهُ. اعْتَادُوا أَنْ يَرْصُدُونِي مِنْ شُرُفَاتِهِمْ. فِي كُلِّ مَرَّةٍ، يَتَوَقَّفُ الْمَطَرُ سَاعَةً

القَطْرَةُ والمُحِيط

خُرُوجِي. كانوا يَبْتَسمون، بِقَلِيلٍ من الحَيَرة: « والله إِنَّكَ محظوظ...

«

تَابَعْتُ ذَلِكَ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ. حَتَّى الصَّبَاحِ الَّذِي أَوْقَفَنِي فِيهِ إِدْرَاكُ
أَخْلَاقِي بَغْتَةً: هل لي الحَقُّ في تَحْوِيلِ المَطَرِ لِإِرَاحَتِي وَحَدِي، فِيما
الأَرْضُ وَالنَّبَاتَاتُ وَالكَائِنَاتُ الحَيَّةُ من حَوْلِي بِحَاجَةٍ إِلَيْهِ؟ تَوَقَّفْتُ فِي
ذَلِكَ اليَوْمِ. لَا خَوْفًا — بَلْ احْتِرَامًا. لِأَنَّ هَذِهِ القُدْرَةَ، أَيًّا كَانَتْ، لَمْ
تَكُنْ مِلْكًَا لِي. كَانَتْ تُعْبِرُنِي فَحَسَبَ. وَذَلِكَ شَيْءٌ مُخْتَلِفٌ تَمَامًا.

يَتَنَاوَلُ هَذَا الفَصْلُ ذَلِكَ الفَرْقَ. الفُتْرَاتِ الَّتِي نَحْمِلُهَا دُونَ أَنْ
نَدْرِي. الأسبابَ الَّتِي جَعَلَتْنَا نَنْسَاهَا — وَالْكِيفِيَّةَ الَّتِي يُمَكِّنُنَا بِهَا أَنْ
نَتَذَكَّرَ.

ذَاكِرَةٌ لَا مَوْهَبَةَ

فِي الكَائِنِ البَشَرِيِّ حَقْلٌ شَاسِعٌ مِنَ الوَعْيِ — لَطِيفٌ، طَالَمَا
أُغْفِلَ، وَأُنْكَرَ أحيانًا، لَكِنَّهُ حَاضِرٌ عَلَى الدَّوَامِ. مَا أَسْتَعِدُّ لَوْصِفِهِ لَيْسَ
فِيهِ شَيْءٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ. هُوَ تَذْكَيرٌ. عَوْدَةٌ إِلَى شَيْءٍ كَوْنِيٍّ نَحْمِلُهُ
جَمِيعًا فِي دَاخِلِنَا. لَا امْتِيَّازَ، بَلْ ذَاكِرَةٌ نَائِمَةٌ.

أَذْكُرُ يَوْمًا أَرْسَلْتُ فِيهِ، بِمُجَرَّدِ نِيَّةٍ ذَهْنِيَّةٍ، رِسَالَةً صَامِتَةً إِلَى
أَرْبَعَةِ أَصْدِقَاءَ بَعِيدِينَ. فِي غُضُونِ سَاعَاتٍ قَلِيلَةٍ، تَوَاصَلَ ثَلَاثَةٌ
مِنْهُمْ مَعِي تِلْفَانِيًّا — وَأَفْصَحَ الرَّابِعُ لَاحِقًا أَنَّهُ فَكَّرَ فِيَّ فِي اللَّحْظَةِ
ذَاتِهَا، لَكِنَّهُ لَمْ يُبَادِرْ بِدَافِعِ الكَسَلِ.

ولم أَكُنْ قد قُلْتُ شَيْئًا لِأَحَدٍ.

أَرَتِي هَذِهِ التَّجَرِبَةُ مَا لَمْ يَعدْ بِمَقْدُورِي إنْكَارُهَا: التَّخَاطُرُ لَيْسَ خَيَالًا. هُوَ قُدْرَةٌ طَبِيعِيَّةٌ نَسِينَاهَا فَحَسَبَ.

« أَتُرِيدُ أَنْ تَعْرِفَ لِمَ تَشْعُرُ بِكُلِّ هَذَا — لِمَ تَسْمَعُ تِلْكَ الْأَصْوَاتَ، لِمَ يَهْتَزُّ جَسَدُكَ دُونَ سَبَبٍ ظَاهِرٍ؟

— نَعَمْ. وَلِمَ يَحْدُثُ هَذَا لِي أَنَا؟

— لِأَنَّكَ تَذَكَّرْتَ.

— أَتَذَكَّرُ مَاذَا؟

— مَا كُنْتُ تَعْرِفُهُ مِنْ قَبْلِ. لَكِنَّكَ نَسِيتَهُ.

— أَتَقْصِدُ... أَنَّنَا نَعْرِفُ جَمِيعًا فِي الْحَقِيقَةِ؟

— نَعَمْ. الْحَدْسُ، التَّخَاطُرُ، السَّمْعُ الْبَاطِنِي، الرُّؤْيَا الدَّاخِلِيَّةُ،
الإِدْرَاكَاتُ الطَّاقِيَّةُ، الْأَحْلَامُ الْوَاغِيَّةُ، الْهَوَاجِسُ الصَّادِقَةُ... لَيْسَتْ
هَذِهِ مَوَاهِبٌ مَوْقُوفَةٌ عَلَى قِلَّةٍ مُخْتَارَةٍ. هِيَ قُدْرَاتٌ طَبِيعِيَّةٌ. تَغْفُو لَدَى
الْأَكْثَرِيَّةِ — لَكِنَّهَا تَنْتَظِرُ، تَنْزَقُّبُ. »

لِمَاذَا نُسِيَتْ هَذِهِ الْقُدْرَاتُ؟

مُنْذُ الْحَضَارَاتِ الْأُولَى، أَظْهَرَ الْإِنْسَانُ قُدْرَاتٍ لَطِيفَةً فِي
الإِدْرَاكَ: السَّامَانِيَّةُ، الْعَرَّافُونَ، الرُّؤْيَى، حَالَاتُ الْإِنْخِطَافِ، الشِّفَاءُ

القَطْرَةُ والمُحِيط

الرَّوْحِيّ. لم تُكُنْ هذه المُمَارَسَاتُ هَامِشِيَّةً. كَانَتْ فِي صَمِيمِ الْحَيَاةِ — مُكْرَمَةً، وَمُقَدَّسَةً فِي الْغَالِبِ.

لكن مع ظُهور العَقَائِدِ الدِّينِيَّةِ الْمُؤَسَّسِيَّةِ، ثُمَّ مع هَيْمَنَةِ الْعَقْلَانِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ، حَدَثَ انْزِيَا ح. مَا كَانَ يُرَى ذَاتَ يَوْمٍ طَبِيعِيًّا — أَوْ إِلَهِيًّا — صَارَ يُوصَمُ بِالْخُرَافَةِ، أَوْ الْخَطَرِ، أَوْ الْاضْطِرَابِ النَّفْسِيِّ. وَانْتَقَلَ هَذَا الْكَبْتُ الثَّقَافِيُّ مِنْ جِيلٍ إِلَى جِيلٍ، عَبَرَ أَبْسَطَ الْعِبَارَاتِ فِي الْغَالِبِ: « مَا هَذَا إِلَّا خَيَالُكَ. » « أَنْتَ تَحْلُم. » « لَا وَاقِعَ إِلَّا مَا تَرَاهُ الْعَيْنُ. »

هَذَا الْانْفِصَالُ لَيْسَ بَرِيئًا. لَقَدْ غَدَى مُجْتَمَعًا مَقْطُوعًا عَنْ ذَاتِهِ — مُوجَّهًا بِكُلِّيَّتِهِ إِلَى الْخَارِجِ، نَحْوِ الْاسْتِهْلَاكِ وَالسُّلْطَةِ الْمَادِيَّةِ وَالسَّيْطَرَةِ. إِنْسَانِيَّةٌ مَحْرُومَةٌ مِنْ حَوَاسِهَا الْعَمِيقَةِ تَغْدُو هَشَّةً، لِأَنَّهَا لَمْ تَعُدْ تَعْرِفُ كَيْفَ تُصْغِي. لَا إِلَى هَمْسِ قَلْبِهَا، وَلَا إِلَى وَشْوَشَةِ الْعَالَمِ غَيْرِ الْمَرْنِيِّ.

وَمَعَ ذَلِكَ، لَا تَطْلُبُ هَذِهِ الْقُدْرَاتُ سِوَى أَنْ تُوقَظَ. لَيْسَتْ مَسْأَلَةُ سُلْطَةٍ. هِيَ مَسْأَلَةُ حُضُورٍ — لِلذَّاتِ، وَلِلْحَيِّ.

التَّعْتِيمُ الْكَبِيرُ

مُنْذُ الْقُرُونِ الْأُولَى، هَمَّشَتِ النِّيَّارَاتُ الدِّينِيَّةُ وَالسِّيَاسِيَّةُ الْكُبْرَى الْمُتَصَوِّفِينَ، وَحَظَرَتِ الْمَعَارِفَ الْبَاطِنِيَّةَ، وَأَحْرَقَتِ الْقَابِلَاتِ — تِلْكَ النِّسَاءَ اللَّوَاتِي حَمَلْنَ مَعَارِفَ مُتَوَارِثَةٍ فِي الطَّبَبِ النَّبَاتِيِّ،

والعلاج الطَّاقِيّ، وفي الدَّوراتِ الطَّبَّيعِيَّة. حارساتُ الحِكمةِ
الأُنثَوِيَّة، مُعالِجات، نِساء-طِبِّ في قَلْبِ مُجْتَمَعَاتِهِنَّ. شَيَطَنُوا
المُعالِجين. سَخَرُوا من الشَّامَانِيِّين.

لم يَكُنْ ذَلِكَ صُدْفَةً. كان إِرَادَةً مُتَعَمَّدةً: قَطَعَ الإنسانُ عن جَوْهَرِهِ
اللطيف.

لأِحَقًّا، أَحَالَ العِلْمُ العَقْلَانِيَّ هذه القُدْرَاتِ إلى دُرَجِ الهَلُوسَاتِ أو
المُصادَفَةِ. وَأَكْمَلَ التَّلَفَّازُ، والمَدْرَسَةُ، والعَقَائِدُ الاجْتِمَاعِيَّةُ والدينيَّةُ
العَمَلُ. دَرَبُونَا على الاعتقادِ بأنَّ حَوَاسِنَا الخَمْسَ وَعَقْلَنَا المَنْطِقِيَّ
هي وَحْدَهَا التي تَسْتَحِقُّ الوجودَ.

مُجْتَمَعٌ مَبْنِيٌّ على السَّيْطَرَةِ لا يَحْتَمِلُ كَائِنَاتٍ بَشَرِيَّةً حُرَّةً حَقًّا،
مُسْتَقِلَّةً، مُلْهَمَةً. الفِكرُ الحرُّ، حِينَ يَتَجَسَّدُ، يَغْدُو مُعْدِيًا. يُسْأَلُ النِّظَامُ
القَائِمُ. مَنْ يُدْرِكُ ما وَرَاءَ الحِجَابِ لا يَعُودُ بِحَاجَةٍ إلى أَنْ يُدَارَ من
الخارج. وَهَنَ بَرْتِجَفُ النِّظَامِ.

نِسيانٌ مُقَدَّسٌ؟

ومَعَ ذَلِكَ — ماذا لو كَانَ كُلُّ ذَلِكَ جُزْءًا من اللُّعْبَةِ؟

أَعْرَقَ التَّقَالِيدُ — من الآياهاواسكا إلى الفيدا، ومن التَّصَوُّفِ إلى
البوذية — تَتَحَدَّثُ جَمِيعُهَا عن حِجَابٍ يَنْبَغِي اخْتِرَاقُهُ. التَّجَسُّدُ، في
هذا المَنْظُورِ، رِحْلَةٌ كَائِنٍ لا مُتْنَاهُ يَخْتَارُ أَنْ يَنْسِيَ نَفْسَهُ في المادَّةِ،
ليَجِدَ نَفْسَهُ على نَحْوِ أَعْمَقَ عَبْرٍ يَقْظَةُ القَلْبِ. ما نَعِيشُهُ لَيْسَ خَلًّا في

القَطْرَةُ وَالْمُحِيطُ

الصُّنْعُ. هُوَ دَعْوَةٌ إِلَى اسْتِعَادَةِ مَوَاهِبِنَا. مُكَاشَفَةُ كَوَكِبِيَّةٍ. نِدَاءٌ
لِلْمُصَالَحَةِ مَعَ طَبِيعَتِنَا الْمُتَعَدِّدَةِ الْأَبْعَادِ.

الْقُدْرَاتُ، وَاحِدَةً وَاحِدَةً

الْحَدْسُ — الْحِكْمَةُ بِلَا تَفْكِيرٍ. لَيْسَ الْحَدْسُ رَأْيًا، وَلَا فِكْرًا
مَنْطِقِيًّا. هُوَ مَعْرِفَةٌ مُبَاشِرَةٌ — وَمِیْضٌ، يَقِينٌ دَاخِلِيٌّ يَأْتِي دُونَ جَهْدٍ،
وَعَالِيًا قَبْلَ أَيِّ تَأَمُّلٍ. يَتَجَلَّى عَبْرَ أَحَاسِيسٍ جَسَدِيَّةٍ: شِدَّةٌ فِي الْحَجَرَةِ،
انْقِبَاضٌ فِي الْبَطْنِ، وَخَزَاتٍ. أَوْ عَبْرَ رُؤْيٍ وَجِيزَةٍ لَا يُمَكِّنُ تَبْرِيرُهَا
فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ. كُلَّمَا أَصْغَيْتَ إِلَيْهِ، صَارَ أَوْضَحَ وَأَدَقَّ. فِي النِّقَالِيدِ
الرُّوْحِيَّةِ، يُرَبِّطُ غَالِبًا بِذِكَاةِ الذَّاتِ — تِلْكَ الْإِرْشَادِيَّةُ الدَّاخِلِيَّةُ الَّتِي
تَنَكَّلُ قَبْلَ أَنْ يَتَدَخَّلَ الْعَقْلُ.

التَّخَاوُفُ — الْفِكْرُ مَا وَرَاءَ الْكَلِمَاتِ. اخْتَبَرْتُهُ بِنَفْسِي، وَنَتَائِجُهُ
صَادِمَةٌ. الْفِكْرُ لَيْسَ مَحْصُورًا فِي الدِّمَاغِ — هُوَ يُبْنَى كَمَوْجَةٍ. حِينَ
يَتَنَاوَمُ وَعَيَانٍ — عَاطِفِيًّا، رُوحِيًّا، ذَبْذَبِيًّا — يَغْدُو نَقْلُ الْمَعْلُومَاتِ
الذِّهْنِيَّةِ مُمَكِّنًا. هُوَ طَبِيعِيٌّ لَدَى الْحَيَوَانَاتِ، وَالْأَطْفَالِ، وَبَعْضِ
النَّوَائِمِ؛ وَيَعُودُ غَالِبًا إِلَى الظُّهُورِ عِنْدَ الْمُتَصَوِّفِينَ، أَوْ لَدَى الشُّعُوبِ
الْجُدُورِ. وَأَصْدِقَائِي الْأَرْبَعَةُ الَّذِينَ بَلَغْتُهُمْ دُونَ كَلِمَةٍ، يَظَلُّونَ بِالنِّسْبَةِ
لِي الْبُرْهَانَ الْأَوْضَحَ الَّذِي بَحَوْرَتِي.

الِاسْتِبْصَارُ — رُؤْيَةٌ دُونَ عَيْنَيْنِ. ثَمَّةٌ مَنْ يُدْرِكُونَ النَّوَايَا،
وَالطَّاقَاتِ، بَلْ صُورَ الْآخَرِينَ الذِّهْنِيَّةِ. لَيْسَ ذَلِكَ مَوْهَبَةً مَوْقُوفَةً

على قِلة، بل قنائة إدراكية متاحة في كُلِّ إنسان — تستلزم صمناً داخلياً، وتأصلاً، وإصغاءً غير ذهني. تُنمي التّقاليد الشّامانية واليوغية والباطنية هذه القدرات منذ الأزل — كانت قديماً جزءاً ممّا كان يُدعى بالفنون المقدّسة.

الاستشعار المُسبق — الزّمن في حُزون. يحدث أن بعض النفوس تستشعر ما هو آت — لا كيفين، بل كنداء من المُستقبل. ليس ذلك عِرافة، بل حدساً بمسار زمني مُحتمل، يُحسُّ به على نحو عاطفيٍّ، أو جسديٍّ، أو رمزيٍّ. كثيراً ما يحجب هذا الإدراك القلق أو العقل. ويتجلى بحريّة أكبر في الأحلام، والتأمّلات، وأعماق الصّمت.

القُدرة على خلق الواقع — الحقل الموحّد. حين نفهم أنّ الواقع ليس خارجيّاً، بل مخلوقٌ بالشرّاقة مع وعينا، ندخل في السّيادة الداخليّة. تغدو الفكرة، والعاطفة، والنيّة، والانتباه قوًى فاعلة في التّحوّل. وهذا أساس ما يُعرف غالباً بقانون الانجذاب — لكن في نسخة أعمق، مرتبطة بدبذبة الكيان أكثر من مجرد الإرادة الذهنيّة.

الروح والمادّة: التّجلي بالنيّة

بورديو، أواخر ٢٠١١ — عودة بعد إحدى عشرة سنة في هولندا

في أواخر عام ٢٠١١، بعد أن غادرت هولندا وعقداً من حياة محمومة ومُنْفَصِلَة عن الجسد، دفّعتني انبعاثٌ داخليٌّ إلى أن أنشئ

القَطْرَةُ وَالْمُحِيطُ

مُنْتَدَى خَاصًّا بِي، مَوْقُوفًا عَلَى قَانُونِ الْإِنْجِذَابِ وَالرُّوحَانِيَّاتِ. لَمْ أَعُدْ أَقْنَعُ بِقِرَاءَةِ رَوَايَاتِ الْآخَرِينَ الْخَارِقَةِ. أَرَدْتُ أَنْ أَعِيشَ هَذِهِ التَّجَارِبَ — أَنْ أُخْتَبِرَهَا فِي جَسَدِي، وَفِي رُوحِي، وَفِي وَاقِعِي.

فِي هَذَا السِّيَاقِ اكْتَشَفْتُ « السِّرَّ » (The Secret) لِروندا بيرن (Rhonda Byrne)، عام ٢٠٠٨. أَطْلَقْتُ قِرَاءَتُهُ فِي دَاخِلِي وَمِیْضَ تَعْرِفٍ — كَأَنَّ قِطْعَةً نَاقِصَةً جَاءَتْ أَخِيرًا تُكْمِلُ اللَّغْزَ الْبَاطِنِيَّ الَّذِي ظَلَلْتُ أَحَاوِلُ تَرْكِيبَهُ مُنْذُ الْأَزَلِ. عَرَفْتُ، بَلَا أَدْنَى ظِلٍّ مِنْ شَكٍّ، أَنَّ هَذَا الْقَانُونَ حَقِيقِيٌّ.

كَانَتْ تَجَرِبَتِي الْأُولَى الْمَلْمُوسَةُ طَلَبًا جَرِيئًا: الْعُثُورَ عَلَى اسْتُودِيُو فِي بوردو، بَيْنَمَا لَمْ تَكُنْ لِي الْإِمْكَانَاتُ الْمَالِيَّةُ وَلَا الْعِلَاقَاتُ. حَدَدْتُ شُرُوطِي بِوُضُوحٍ — مَسْكَنٌ صَغِيرٌ فِي قَلْبِ الْمَدِينَةِ، تَخْدُمُهُ مُوَاصَلَاتٌ جَيِّدَةٌ، فَاتِنٌ، دُونَ أَنْ أَدْفَعُ شُهُورًا مُقَدَّمًا، وَدُونَ الْمُرُورِ بِوَكَالَةٍ. لَا أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ.

كُنْتُ أَتَخَيَّلُ هَذَا الْمَكَانَ كُلَّ يَوْمٍ، وَأَجْعَلُهُ خَلْفِيَّةَ شَاشَةِ كُمْبِيُوتَرِي — لَوْحَةً تَصَوِّرُ حَيَّةً، حَاضِرَةً عِنْدَ كُلِّ فَتْحٍ لِجَلْسَةٍ جَدِيدَةٍ. كُنْتُ أَسْتَشْعِرُ عَاطِفَةَ السُّكْنَى فِيهِ، عَاطِفَةَ الْقِرَاءَةِ، عَاطِفَةَ النَّأْمُلِ.

وَفِي تِلْكَ الْأَتْنَاءِ، كَانَتْ كُلُّ مَسَاعٍ تَبْدُو بِلا جَدْوَى. كُلُّ وَكَالَةٍ تُعْلِنُ إِيْجَارَاتٍ خَيَالِيَّةً وَشُرُوطًا تَنْفِيرِيَّةً. لَكِنِّي بَدَلًا أَنْ أَهَارَ، تَمَرَّكَزْتُ مِنْ جَدِيدٍ. كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ زَمَنَ الْكَوْنِ لَيْسَ زَمَنَ الْإِنْسَانِ.

قَبْلَ عَشْرَةِ أَيَّامٍ مِنْ انْتِهَاءِ إِذْكَارِي الدَّخْلِ، خَطَرَ بِبَالِي صَدِيقُ مُرَاهِقَةٍ بوردولي كُنْتُ قَدْ فَقَدْتُ أَثَرَهُ. تَعَذَّرَ عَلَيَّ الْعُثُورُ عَلَيْهِ — لَكِنِّي تَذَكَّرْتُ شَقِيقَةَ الْمُعَلِّمِ. وَحِينَ تَوَاصَلْتُ مَعَهُ، عَلِمْتُ أَنَّهُ كَانَ فِي لُبْنَانَ مُوقَفًا، إِثْرَ وَفَاةٍ وَالدَّيْهَمَا. وَبَعْدَ حَدِيثٍ يَفِيضُ بِالْعَاطِفَةِ، أَخْبَرَنِي أَنَّ اسْتُودِيوَ يَمْلِكُهُ شَقِيقُهُ — فَارِغًا مُنْذُ وَفَاةٍ وَالدَّيْهَمَا — قَدْ يُعْرَضُ عَلَيَّ.

فِي أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ، تَجَسَّدَ مَا لَا يُتَصَوَّرُ: اسْتُودِيوُ فِي قَلْبِ بوردو، مُتَاحٌ عَلَى الْقَوْرِ، بِلَا أَنْعَابٍ، بِإِيجَارٍ زَهِيدٍ. كُلُّ شَيْءٍ يُطَابِقُ مَا صُنِعَتْهُ. وَبَقِيَتْ عَقَبَةٌ آخِرَةٌ: لَمْ تَكُنْ فِي حَبِيبِي قِرْشٍ وَاحِدٌ لِبَطَاقَةِ الطَّائِرَةِ، وَلَا لِالْتِقَالِ، وَلَا حَتَّى لِدَفْعِ الشَّهْرِ الْأَوَّلِ.

فِي الْأُسْبُوعِ ذَاتِهِ، عَرَضَ عَلَيَّ صَدِيقٌ حَمِيمٌ، جَاءَ يَزُورُنِي، أَنْ يُمَوَّلَ كُلُّ ذَلِكَ تِلْقَانِيًّا. دُونَ شَرْطٍ. مَدَّ يَدَهُ فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي احْتَجَبْتُ فِيهَا إِلَى يَدِهِ.

اِكْتَمَلَتْ الْمُعْجِزَةُ.

ثَلَاثُ سَنَوَاتٍ مِنَ الْمَطَرِ

بوردو، ٢٠١١-٢٠١٤

فِي السَّنَوَاتِ الَّتِي تَلَتْ، تَعَمَّقَتْ هَذِهِ الْعَلَاقَةُ اللَّطِيفَةُ حَتَّى صَارَتْ أَلِيفَةً تَقْرِيبًا فِي انْتِظَامِهَا.

القَطْرَةُ وَالْمُحِيطُ

حِينَ كُنْتُ أُخْرِجُ لِأَتَبَضَّعَ فِي « الكابوسان » — على بُعدِ رُبْعِ ساعةٍ من استوديوِي — كَانَتْ دَقِيقَةً وَاحِدَةً مِنَ النَّصُورِ تَكْفِي. دَقِيقَةً أُغْلِقُ فِيهَا عَيْنِي، أَرَى السَّمَاءَ زَرْقَاءَ، وَالرَّصِيفَ دَافِئًا، وَأَسْتَشْعِرُ الْمَشْيَ فِي الْجَفَافِ. دَقِيقَةً أُغْلِقُ بَعْدَهَا الْبَابَ خَلْفِي. وَيَتَوَقَّفُ الْمَطَرُ.

كُلَّ سَبْتٍ صَبَاحًا. أُسْبُوعًا تِلْوَ أُسْبُوعٍ. طَوَالَ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ.

حَتَّى الصَّبَاحِ الَّذِي تَوَقَّفْتُ فِيهِ — لَا لِأَنَّ الْأَمْرَ تَوَقَّفَ عَنِ الْعَمَلِ، بَلْ لِأَنِّي أَدْرَكْتُ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مَوْضُوعًا لِإِرَاحَتِي وَحْدِي. لِأَنَّ الْأَرْضَ مِنْ حَوْلِي لَهَا حَاجَاتُهَا الْخَاصَّةُ.

الْقُدْرَةُ الَّتِي تَعْبُرُكَ لَيْسَتْ كَالْقُدْرَةِ الَّتِي تَمْلُكُهَا.

مَا انْتَهَيْتُ إِلَى فَهْمِهِ مَعَ الْوَقْتِ، هُوَ أَنَّ قَانُونَ الْإِنْجِذَابِ لَيْسَ عَقِيدَةً وَلَا خُرَافَةً. هُوَ قَانُونٌ كَوْنِي، حَقِيقِي كَحَقِيقَةِ الْجَازِبِيَّةِ. يَسْتَجِيبُ لِذَبْدَبَتِنَا، لَا لِكَلِمَاتِنَا. لَا يَحْكُمُ. يَفْعَلُ — بِشَرَطٍ أَنْ تَكُونَ رَغْبَتُنَا الْعَمِيقَةُ مُتَّالِفَةً مَعَ تَرَدُّدِنَا الدَّاخِلِيِّ. لَا يُمَكِّنُنَا أَنْ نَجْذِبَ حَدَثًا مُضْئِيًّا إِنْ كُنَّا نَهْتَزُّ عَلَى ذَبْدَبَةِ الْخَوْفِ أَوْ الشَّلَكِ أَوْ النَّقْصِ. وَهُنَا يَكْمُنُ الْمِفْتَاحُ الرُّوحِي: رَفَعِ الذَّبْدَبَةَ لَيْسَ تَقْنِيَّةً. هُوَ طَرِيقَةٌ فِي الْكَيْنُونَةِ.

شَهَادَةُ شَخْصِيَّةٍ — رِحْلَتِي مَعَ الْمَوْلَدَا فَيَت

سَبْتِمَبْر ٢٠١١ — التَّجَرُّبَةُ الْأُولَى

حَدَّثْتُ لِي تَجَرِبَةً بَدِيعَةً مَعَ « مولدافيتي » (Moldavite) فيما
كُنْتُ مُمَدِّدًا دَاخِلَ سِي تِي سَكَان (CT scan).

كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ المولدافيت مَعْرُوفَةٌ بِجِمَائِيَّتِهَا مِنَ الْأَشْعَةِ
السَّيْنِيَّةِ، لَكِنِّي لَمْ أَكُنْ قَدْ اخْتَبَرْتُ ذَلِكَ يَوْمًا. كُنْتُ قَدْ خَضَعْتُ
لِفَحْصَيْنِ رِئَوِيَّيْنِ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ، وَكَانَ فَحْصٌ ثَالِثٌ مُقَرَّرًا.
هَذِهِ الْمَرَّةَ، قَرَّرْتُ بِبَسَاطَةٍ أَنْ أَطْلُبَ مِنْهَا — ذِهْنِيًا — أَنْ تَحْمِيَنِي
مِنَ الْإِشْعَاعِ. لَا أَكْثَرَ.

حَالَ دُخُولِي إِلَى الْجِهَازِ، كُنْتُ قَدْ نَسِيتُ تَمَامًا أَنَّ الْحَجَرَ فِي
جَيْبِي — بِسَبَبِ التَّوَثُّرِ بِلَا شَكٍّ. حِينَ بَدَأَ الْمَسْحَ، كَانَتْ عَيْنَايَ
مُغْمَضَتَيْنِ. ثُمَّ، فِي اللَّحْظَةِ ذَاتِهَا الَّتِي أَخَذْتُ فِيهَا الْآلَةَ بِالْدَّوْرَانِ،
ظَهَرَ ضَوْءٌ أَخْضَرُ نَاعِمٌ وَمُنْتَشِرٌ — اللَّوْنُ ذَاتُهُ لِلْمَوْلِدَافِيْتِ — عِنْدَ
مُسْتَوَى الشَّاكِرَا السَّادِسَةِ. خِلَالَ الدَّقَائِقِ الْقَلِيلَةِ الَّتِي دَامَ فِيهَا
الْفَحْصُ، غَلَفَنِي هَذَا الْوَهْجُ الْأَخْضَرُ. مُمْتِعٌ بِشَكْلِ هَائِلٍ. مُهْدِئٌ فِي
الْعُمُقِ. وَحَالَ تَوَقُّفِ الْمَسْحِ، اخْتَفَى الضَّوْءُ.

بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ، حَصَلْتُ عَلَى النَّتَائِجِ. كُلُّ شَيْءٍ عَلَى مَا يُرَامُ.
حَسَاسِيَّةٌ بَسِيطَةٌ — سَبَبُ سُعَالِي الْمُسْتَمِرِّ.

التَّجَرِبَةُ الثَّانِيَّةُ

أَحْمِلُ المولدافيت يَوْمِيًّا حَوْلَ عُنُقِي. لَا أَنْزِعُهَا إِلَّا لِلنَّوْمِ،
فَأَضَعُهَا فِي صَدَقَةِ « سان جاك » (coquille Saint-Jacques)

القَطْرَةُ وَالْمُحِيطُ

لَأُطَهِّرَهَا وَأُعِيدَ شَحْنَهَا. وَإِنْ نَسِيتُ صُدْفَةً وَنِمْتُ بِهَا، يَسْتَحِيلُ عَلَيَّ
إِغْمَاضُ عَيْنَيَّ — السَّمْعُ الْبَاطِنِيُّ الَّذِي تُشِيرُهُ يَكُونُ قَوْرِيًّا: صُورٌ
مُجَرَّدَةٌ وَأَشْكَالٌ تَظْهَرُ أَمَامَ عَيْنَيَّ الْمُغْمَضَتَيْنِ، أَلْوَانٌ مَجْهُولَةٌ تَمَامًا،
يَتَعَذَّرُ وَصْفُهَا بِلُغَتِنَا. أَلْوَانٌ تَبْدُو وَكَأَنَّهَا لَا تَنْتَمِي إِلَى بُعْدِنَا الْبَشَرِيِّ.
ثَلَاثَ مَرَّاتٍ نَسِيتُ أَنْ أَنْزِعَهَا قَبْلَ النَّوْمِ. وَلَا أَنْصَحُ بِذَلِكَ.

فِي كُلِّ مَرَّةٍ، وَأَنَا مُمَدَّدٌ فِي الْعَتَمَةِ، كُنْتُ أَغْدُو ذَا سَمْعٍ بَاطِنِيٍّ
حَادٍ. أَصَوَاتٌ، ضَجِيجٌ، أَصَوَاتُ بَشَرٍ لَطِيفَةٌ — كَأَنَّهَا مَأْلُوفَةٌ. هَمْسٌ
نَابِضٌ لِحَانَةٍ غَاصَّةٍ، لَكِنَّهُ قَادِمٌ مِنْ مَكَانٍ آخَرَ. كَانَتْ الْأَصَوَاتُ مِنْ
الْوَاقِعِيَّةِ بَحِيثٌ حَاوَلْتُ مِرَارًا أَنْ أُصْغِيَ بَانْتِبَاهًا، وَأُحَدِّدَ اللُّغَةَ. عَبَثًا.
وَلَا كَلِمَةً وَاحِدَةً مَفْهُومَةً. بَدَأَ أَنَّ هَذِهِ اللُّغَةَ لَيْسَتْ لُغَتُنَا — لَيْسَتْ
أَرْضِيَّةً، بَلْ قَادِمَةٌ مِنْ مَكَانٍ مُخْتَلَفٍ تَمَامًا.

فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى، حِينَ نَزَعْتُهَا أَخِيرًا وَوَضَعْتُهَا عَلَى طَاوِلَةِ
السَّرِيرِ، تَابَعَتِ الْأَصَوَاتُ مُسْتَمِرَّةً. نَقَلْتُهَا إِلَى كُرْسِيِّ فِي الطَّرَفِ
الْآخَرَ مِنَ الْعُرْفَةِ. كَانَتْ لَا تَزَالُ هُنَاكَ، لَكِنْ أَضْعَفُ. وَلَمْ يَعُدْ
الْهُدُوءُ إِلَّا حِينَ وَضَعْتُهَا فِي عُرْفَةٍ أُخْرَى مِنَ الْمَنْزِلِ — وَمَعَهُ،
عَادَ النَّوْمُ.

الْمَوْلِدَانِيَّةُ تَفْتَحُ قَنَوَاتٍ غَيْرَ مَرْنِيَّةٍ. تَخْلُقُ جِسْرًا بَيْنَ عَالَمِنَا
وَعَالَمٍ آخَرَ — بِكُلِّ رَفَقٍ — وَإِنْ كُنْتُ لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ أَيُّ عَالَمٍ.
مُنْذُ اقْتَنَيْتُهَا، لَمْ تَكُنْ لِي مَعَهَا أَيُّ مَشْكَلَةٍ، بَلْ سَعَادَةٌ خَالِصَةٌ. حِينَ

أُنسى أن أرتديها، يَظْهَرُ أحيانًا ضَوْءٌ أَخْضَرُ مُنْتَشِرٌ عِنْدَ الشاكرا
السادسة — كأنه يُطْمِئِنِّي بأنها لا تزالُ هناك، حَيْثُما تَرَكَناها. أُحِبُّ
هذه الحَجَرَةَ. تُطْهَرُ، تُوازَنُ، تُحْمَى. وَتُتِيحُ لي شَكْلًا من التَّواصلِ
مع عالَمٍ آخَرٍ — غَيْرِ مُعَادٍ، بل حَامِلٍ لِلْمَحَبَّةِ.

والآن؟

اليوم، يَتَكشَّفُ الحِجاب. التَّزامناتُ تَتَضاعَف. الأياهاواسكا،
الأحلام، الحَدْسُ العميق، الرِّوابطُ غَيْرُ المَرئيَّةِ — كُلُّ هذا يَعُودُ
بِقُوَّة، كذاكِرةٍ قَدِيمةٍ تَتَوَقُّ إلى الاستيقاظِ من جَدِيدٍ.
والبِشارة: لا شيءَ ضاع.

هذه القُدَراتُ موجودة، سليمة، فينا. نَتَنظَرُ نَظَرَنا المُحِبَّةِ،
وَنُفَقِّنُها، وَمُمارَسَتَنا. وَقَبْلَ كُلِّ شيءٍ — إِذْنا الداخِلِيَّ بأن نُعبِّرَ عن
نَفْسِها.

إِعادَةُ اكتِشافِ قُدَراتِنا المَنسيَّةِ أَشْبَهُ بِإِعادَةِ تَعَلُّمِ المَشي حُفَاةً
على أرضٍ نَعْرِفُها أَصْلًا. ليسَ ذلكَ فَتَحًا. هو عَودةٌ — بِطَبيئَةٍ،
حَنون، مُفرحةٌ أحيانًا، مُزَلزلةٌ في الغالب.

ليسَ الأمرُ في أن تَصيرَ مُمَيِّزًا. الأمرُ في أن تَعوَدَ كامِلًا.

القَطْرَةُ وَالْمُحِيطُ

وفي هذا الطريق نَحْوَ إِعَادَةِ الْوَصْلِ، تَغْدُو كُلُّ تَجْرِبَةٍ، وَكُلُّ
حَدَسٍ، وَكُلُّ صَمْتٍ مَسْكُونٍ، جِسْرًا — نَحْوَ الذَّاتِ، نَحْوَ الْآخَرِ،
نَحْوَ غَيْرِ الْمَرْنِيِّ.



الفصل الثامن

شانيا

بورديو، ٢٠١٦ — نشأة شانيا

الرَّجُلُ الَّذِي غَادَرَ حَلْبَةَ الرَّقْصِ

« بوم فستيفال » (Boom Festival)، البرتغال، ٢٠١٦.

عَشْرَاتُ آلَافِ النَّاسِ. الْمَوْسِيقَى تَنْبِضُ فِي كُلِّ الْأَرْجَاءِ. أَكْثَرُ مِنْ
مِئَةٍ وَخَمْسِينَ جِنْسِيَّةً مُجْتَمِعَةً فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ — تَرْقُصُ، تُغَنِّي،
تَعِيشُ جَنْباً إِلَى جَنْبٍ فِي أَجْوَاءٍ مِنْ وَحْدَةٍ عَمِيقَةٍ، تَكَادُ تَكُونُ غَيْرَ
مُحْتَمَلَةٍ.

وَفِي مَكَانٍ مَا مِنْ قَلْبٍ كُلِّ هَذَا، غَادَرَتْ حَلْبَةُ الرَّقْصِ لِأَذْهَبَ
وَأَسْتَمِعَ إِلَى مُحَاضَرَةٍ حَوْلِ التَّغْيِيرِ الْمَنَاخِيِّ.

لَسْتُ مُتَأَكِّدًا أَنِّي عَرَفْتُ كَيْفَ أُفَسِّرُ ذَلِكَ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ. كَانَ
نَمَةً بَبْسَاطَةً شَيْءٌ مَا يَجْذِبُنِي — بَعِيدًا عَنِ الْإِحْتِفَالِ، نَحْوِ الْأَسْئَلَةِ
الَّتِي كَانَتْ تُطْرَحُ تَحْتَ شَمْسٍ حَارِقَةٍ، فِي خِيَمَةٍ تَجَمَّعَتْ فِيهَا
مَجْمُوعَاتُ بِالإِلَاحِ الصَامِتِ نَفْسِهِ. شُبَّانٌ فِي مُعْظَمِهِمْ. أَعْرَاقُ،

القَطْرَةُ وَالْمُحِيطُ

أديانٌ، أعمارٌ، جنسيّاتٌ مُختلفةٌ — جَمِيعُهُمْ مُنَحْنُونَ إِلَى الأَمَامِ
حَوْلَ قَضِيَّةٍ وَاحِدَةٍ: مُسْتَقْبَلُ الكَوْكَبِ الَّذِي وَرَثُوهُ.

كُنْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَهُمْ يَطْرَحُونَ أَسْئَلَةً دَقِيقَةً. يَتَبَادَلُونَ أَفْكَاراً
جَدِيدَةً. يَتَحَدَّثُونَ الْمُتَحَدِّثِينَ. ثُمَّ يَلْتَحِقُونَ بِوَرَشِ تَطْبِيقِيَّةِ. الرُّوحُ الَّتِي
كَانَتْ تَسُودُ تِلْكَ الْخَيْمَةَ لَمْ تَكُنْ رُوحَ مِهْرَجَانٍ. كَانَتْ رُوحَ أَنْاسٍ
قَرَّرُوا أَنْ يَأْخُذُوا شَيْئاً مَا عَلَى مَحْمَلِ الْجَدِّ.
بَقِيَتْ هُنَاكَ طَوِيلاً.

شَيْءٌ فِي دَاخِلِي كَانَ يَتَعَرَّفُ عَلَى مَا أَرَاهُ — لَا كَفِكْرَةٍ، بَلْ كِنْدَاءٍ.

بَحْثٌ كَوْنِيٌّ

مَا أَدْهَشَنِي أَكْثَرَ شَيْءٌ فِي تِلْكَ الْمُحَاضَرَاتِ لَمْ يَكُنْ جَسَامَةً
الْمَشَاكِلِ الْمَوْصُوفَةِ — مَهْمَا بَلَغَتْ مِنْ إِنْذَارٍ — بَلْ وَضُوحَ الَّذِينَ
كَانُوا يَصِفُونَهَا. لَمْ يَكُونُوا أَكَادِمِيِّينَ يُنْشِدُونَ أَبْحَاثَهُمْ أَمَامَ قَاعَاتٍ
فَارِغَةٍ. كَانُوا شُغُوفِينَ، رَاسِخِينَ، عَلَى عَجَلَةٍ. كَانُوا يَتَكَلَّمُونَ عَنْ
شُحِّ الْمَاءِ، عَنْ الْإِحْتِبَاسِ الْحَرَارِيِّ، عَنْ انْهِيَارِ الْمَسْكَنِ فِي مُتَنَاوِلِ
النَّاسِ — وَكَانُوا يَتَكَلَّمُونَ عَنْ حُلُولِ. حُلُولِ حَقِيقِيَّةِ. حُلُولِ يُمَكِّنُ أَنْ
تُبْنَى، أَنْ تُجَرَّبَ، أَنْ تُنْشَارَكَ.

خَرَجْتُ مِنْ تِلْكَ الْخَيْمَةِ بِإِحْسَاسٍ كُنْتُ أَتَعَرَّفُ عَلَيْهِ مِنْ لَحَظَاتٍ
أُخْرَى فِي حَيَاتِي — اللَّيْلَةُ الَّتِي أَمَلْتُ فِيهَا أُمِّي وَصِيَّتَهَا، الصَّبَاحُ

الذي سَمِعْتُ فيه صَوْتٌ شَري مَاتَاجِي لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، الصَّمْتُ الَّذِي تَلَا
طَقَسَ الْإِيَاهُوَاسْكََا.

إِحْسَاسٌ بِأَنَّ شَيْئاً مَا يَبْدَأُ.

مُخْتَبَرُ الْأَفْكَارِ وَالْأَفْعَالِ

طِيلَةُ أُسْبُوعٍ كَامِلٍ، رَاقَبْتُ هَذَا الْجِيلَ الْجَدِيدَ — مُتَحَرِّراً، لَكِنْ
وَاعِياً وَعِياً اسْتِنَائِيّاً لِتَحْدِثَاتِ زَمَنِهِ. كُنْتُ أَسْتَشْعِرُ طَاقَةً جَمَاعِيَّةً
قَوِيَّةً، رَغْبَةً صَادِقَةً فِي الْبِنَاءِ بَدَلاً مِنْ مُجَرَّدِ الْإِحْتِجَاجِ. لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ
مُجَرَّدَ احْتِفَالٍ. كَانَ مُخْتَبِراً لِلْأَفْكَارِ وَالْأَفْعَالِ، عَرْضاً حَيّاً لِمَا يُمَكِّنُ
لِلْإِنْسَانِيَّةِ أَنْ تُصْبِحَ حِينَ تَخْتَارُ التَّعَاوُنَ بَدَلاً مِنَ الْإِنْقِسَامِ.

بَعْدَ سَنَتَيْنِ، فِي عَامِ ٢٠١٨، عُدْتُ إِلَيْهِ — لَا لِأَرْفُصَ هَذِهِ
الْمَرَّةَ، بَلْ لِأَنْعَمِسَ كُلِّيّاً فِي تِلْكَ الْمُحَاضَرَاتِ. بِحُلُولِ ذَلِكَ الْوَقْتِ،
كَانَتْ « شَانِيَا » (CHANYA) قَدْ وُلِدَتْ فِي ذِهْنِي.

رِسَالَةٌ تَجَسَّدَتْ فِي اسْمِ

فَرَضَ الْاسْمُ نَفْسَهُ كَبَدِيهِيَّةٍ. شَانِيَا — اسْمٌ يَعْنِي « الْإِيجَابِي »
بِالسَّوَاخِيلِيَّةِ. بَسِيطٌ. وَاضِحٌ. يُشِيرُ فِي الْإِتِّجَاهِ الصَّحِيحِ.

لَمْ يَكُنْ هَذَا الْمَشْرُوعُ مُجَرَّدَ فِكْرَةٍ. كَانَ يَحْمِلُ رِسَالَةَ حَيَاةٍ.
أَرَدْتُ أَنْ أَسْتَجِيبَ لِأَزْمَةِ الْمَسْكَنِ بَيْنَمَا أُكْرِمُ الْبِيئَةَ — أَنْ أُقَدِّمَ
حُلُولاً مُسْتَدَامَةً وَمُتَاحَةً لِلْأَجْيَالِ الْقَادِمَةِ. خُلِمَ مُتَاصِلٌ فِي كُلِّ مَا

القَطْرَةُ وَالْمُحِيطُ

عَلَّمْتَنِي إِيَّاهُ السَّنَوَاتُ: التَّرَابُطُ، أَهَمِّيَّةُ خِدْمَةِ الْآخَرِينَ، وَضُرُورَةُ تَوَازُنٍ بَيْنَ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالطَّبِيعَةِ.

كَانَ ذَلِكَ أَيْضاً، أَدْرَكَتُهُ شَيْئاً فَشَيْئاً، جَوَاباً عَلَى مَا قَالَتْهُ لِي أُمِّي فِي بَدَايَةِ التَّسْعِينَاتِ، فِي لَحْظَةٍ لَمْ أَنْسَهَا أَبَداً:

« يا ماما حبيبتي، بهالحياة، أهمّ شي هو الأثر يلّي بيتركو كلّ واحد منّا وراءه. المصاري بتروح وبتجي — بس هالأشيا يلّي بتبقى من بعد ما نروح، أهمّ بكثير. »

شانيا كَانَتْ أَثْرِي. الشَّكْلُ الَّذِي انْتَهَى إِلَيْهِ جَوَابِي عَلَى تِلْكَ الْعِبَارَةِ.

رُؤْيَا تَنُمُو وَتَتَبَدَّلُ

مَعَ الْوَقْتِ، تَطَوَّرَتْ شَانِيَا — مِنْ قَرْيَةٍ بَيْئِيَّةٍ إِلَى مُقَارَبَةٍ أَكْثَرُ مُرُونَةً لِمَسَاكِينِ بَيْئِيَّةٍ. هَذِهِ الْمَسَاكِينُ مُصَمَّمَةٌ لِتَكُونَ فِي مُتَنَاوَلِ الْجَمِيعِ، مُبْتَكِرَةٌ، وَمُحْتَرَمَةٌ لِلْبَيْئَةِ. تَسْتَجِيبُ لِضُرُورَتَيْنِ مُتَشَابِهَتَيْنِ: أَزْمَةُ الْبَيْئَةِ، وَنُدْرَةُ الْمَسْكَنِ فِي مُتَنَاوَلِ النَّاسِ — ضُرُورَتَانِ لَا تَتَفَصِّلَانِ.

شَانِيَا أَكْثَرُ بِكَثِيرٍ مِنْ مُجَرَّدِ جَوَابٍ عَلَى تَحَدِّياتٍ مُعَاَصِرَةٍ. هِيَ رُؤْيَا لِمُسْتَقْبَلٍ يُشَكِّلُ فِيهِ الْإِنْسِجَامُ مَعَ الطَّبِيعَةِ وَالتَّضَامُنُ بَيْنَ الْبَشَرِ، الْأُسُسُ ذَاتُهَا لِحَيَاتِنَا الْمُشْتَرَكَةِ.

مِيرَاثُ مَلْمُوسٍ

كَثِيراً مَا تَأَمَّلْتُ مَا تُجَسِّدُهُ شَانِيَا حَقّاً بِالنِّسْبَةِ إِلَيَّ. أَبْعَدَ بِكَثِيرٍ مِنْ
كَوْنِهَا مَشْرُوعاً مَعْمَارِيّاً أَوْ بَيْنِيّاً، صَارَتْ كِيمِيَاءَ ابْتِلَاءَاتِي
وَتَطَلُّعَاتِي — عُبُوراً بَيْنَ أَعْمَاقِ الرُّوحِ الْخَفِيَّةِ وَالْإِلْتِزَامَاتِ
الْمَلْمُوسَةِ فِي الْفِعْلِ.

مِنْ خِلَالِهَا، تَجِدُ جِرَاحِي مَعْنَى. تَأْخُذُ أَحْلَامِي سُكْلاً. وَمَا تَعَلَّمْتُهُ
يُفِيدُ غَيْرِي.

كُلُّ جِدَارٍ مَطْبُوعٍ يَحْمِلُ ذَاكِرَةَ دَرَسٍ.

وَكُلُّ إِنْجَازٍ يَهْمِسُ بِالْمُثَابَرَةِ الَّتِي وُلِدَتْ مِنَ الرِّيَّاحِ الْمُعَاكِسَةِ.

شَانِيَا هِيَ النَّفْسُ الْحَيُّ لِمِيرَاثٍ أَوْدُ أَنْ أُقَدِّمَهُ لِلْعَالَمِ — مِيرَاثُ
يَنْبَعُ مِنَ التَّجَرُّبَةِ، وَيَمْتَدُّ نَحْوَ الْكَوْنِيِّ.

تِلْكَ الْخَيْمَةِ، فِي «بُومِ فُسْتِيْفَالٍ» — بِأَسْئَلَتِهَا الْمُلْحَةَ وَأَمَلِهَا
غَيْرِ الْمُحْتَمَلِ — تَبْقَى مَنْقُوشَةً فِي كَمَهِدِ كُلِّ مَا تَلَا. أَهْدَتْنِي إِلَهَاماً
لَا يُقَدَّرُ بِنَمْنٍ، وَأَرَتْنِي أَنَّ عَالِماً آخَرَ مُمَكِّن: عَالَمٌ نَرْقُصُ فِيهِ،
وَنُغَنِّي، وَنَحْلُمُ مَعاً — وَحَيْثُ نَنْطَلِقُ بَعْدَهَا إِلَى الْعَمَلِ.

سَأَتَابِعُ هَذَا الْحُلْمَ مَا دَامَ نَفْسِي يَسْمَحُ لِي.

هُوَ يَمْنَحُ حَيَاتِي مَعْنَى عَمِيقاً.

وَيُنِيرُ الطَّرِيقَ لِأُولَئِكَ الَّذِينَ أَوْدُ مُرَافَقَتِهِمْ.



الفصل التاسع

الأندلس

إسبانيا، ٢٠١٧ — جماعة صنسيد

بطاقة الصداقة

في صباح يوم رحيلي عن «صنسيد ديزرت تكنولوجي»
(Sunseed Desert Technology)، أهدتني الجماعة بطاقة
كبيرة مصنوعة باليد.

ما زلت أحتفظُ بها. إنها مغطاة بالكتابات — خطوط مختلفة،
ولغات مختلفة، وأصوات مختلفة — كلها تقول صيغاً متنوعة
للشيء نفسه. عبارتان بقيتا عالقتين في قلبي أكثر من سواهما.

الأولى:

«أنت كالمنارة، تُضيءُ شُكوكنا في العتمة. شكراً لك على كلِّ ما
أعطيتنا.»

والثانية:

«حكاياتك أيقظت في نفسي رغبة المصالحة بين ماضي ومستقبلي.
شكراً لإصغائك ولطفك.»

القَطْرَةُ وَالْمُحِيطُ

كُنْتُ قَدْ وَصَلْتُ قَبْلَ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ بِصِفَتِي غَرِيباً تَمَاماً — في
الخامسةِ والخمسينِ من عُمرِي، مُحاطاً بِشَبَابٍ يَتَمَحَوَّرُ مُتَوَسِّطُ
أَعْمَارِهِمْ حَوْلَ الخَامِسةِ والعِشرينِ، في جَمَاعَةٍ تَقَعُ في جَنُوبِ
إِسبَانِيَا حَيْثُ اللُّغَةُ الأَسَاسِيَّةُ هِيَ الإنكليزيَّةُ، والنَّشَاطُ الأَسَاسِيُّ هُوَ
تَعَلُّمُ حَيَاةٍ مُسْتَدَامَةٍ بِقَلِيلٍ جِداً. كَانَ بِإِمْكَانِي أَنْ أَكُونَ أَبَاهُمْ. مُعْظَمُهُمْ
لَمْ يَعْرِفُوا في البَدْءِ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَظُنُّوهُ بِي.
هَذِهِ هِيَ قِصَّةُ كَيْفَ انْتَهَتْ تِلْكَ البِطَاقَةُ بِأَنْ تُكْتَبَ.

بَحْثاً عَنْ رُؤْيَا جَمَاعِيَّةِ

لَكِي أَصْغَلَ شَانِيَا، كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَفْهَمَ مَا هُوَ المُجْتَمَعُ — لَا فِي
النَّظَرِيَّةِ بَلْ فِي المُمَارَسَةِ. فِي تِلْكَ المَرَحَلَةِ، كُنْتُ مَا زِلْتُ أُغْذِّي
طُمُوحَ بِنَاءِ قَرْيَةٍ بَيْنِيَّةٍ، قَبْلَ أَنْ أَعْدَلَ رُؤْيَايَ لِاحِقاً نَحْوَ مَسْكَنِ بِيئِي
ميسور التكاليف.

فِكْرَةُ الانْضِمَامِ إِلَى جَمَاعَةٍ لِْبُضْعَةِ أَشْهُرٍ لَمْ تُكُنْ مُطْمَئِنَّةً البتَّةَ.
كَانَتْ تَعْنِي الخُرُوجَ مِنْ مَنَاطِقَةِ رَاحَتِي، وَالانْغِمَاسَ فِي بَلَدٍ غَرِيبٍ،
والتَّنَقُّلَ فِي يَوْمِيَّاتٍ لَا تَجْرِي بِالْفَرَنْسِيَّةِ وَلَا بِالعَرَبِيَّةِ وَلَا بِالهولَنْدِيَّةِ.

كَانَ صَدِيقِي «مِيكََا» (Mika) — الَّذِي يَسْكُنُ قُرْبَ «مَارْبِيَلَا»
(Marbella)، فِي جَنُوبِ إسبَانِيَا — هُوَ مَنْ أَعْطَانِي الدَّفْعَةَ
الحَاسِمَةَ. خِلَالَ حَدِيثٍ عَنْ شَانِيَا، صَارَحَنِي بِصُعُوبَاتِي فِي تَصَوُّرِ
قَرْيَةٍ بَيْنِيَّةٍ وَأَنَا لَمْ أَعِشْ يَوْمًا فِي وَاحِدَةٍ. تَجَرَّبَتِي المُبَاشِرَةُ الوَحِيدَةُ

كَانَتْ قَصِيرَةً — أَيَّامَ مَعْدُودَةٍ أُنْشِطُ فِيهَا وَرَشَاتِ خَطِّ عَرَبِيٍّ خِلَالَ
سَنَوَاتِ دِرَاسَاتِي فِي النَّصْمِيمِ.

أَجَابَنِي مِيكََا بِبَسَاطَةٍ:

«لَيْشَ مَا بَتْرُوحَ تَعِيشَ بِجَمَاعَةٍ كَمَ أُسْبُوعٍ أَوْ كَمَ شَهْرٍ — تَشُوفُ،
تَتَعَلَّمُ، وَتَسْتَلْهُمْ؟»

ظَلَلْتُ نَصِيحَتُهُ تَرْنُ فِي دَاخِلِي طَوَالَ طَرِيقِ الْعُودَةِ إِلَى بُورْدُو.

صَنْسِيدُ دِيزَرْتِ تِكْنُولُوجِي

بَعْدَ أُسَابِيعَ، قَادَتْنِي أَبْحَاثِي إِلَى صَنْسِيدِ — مُنْظَمَةٌ بَيْئِيَّةٌ تَخْتَبِئُ فِي
تِلَالِ جَنُوبِ إِسْبَانِيَا، وَتُقَدِّمُ مَزِيَجاً نَادِراً: الْحَيَاةَ فِي جَمَاعَةٍ مَعَ
مُسَاهَمَةٍ فَاعِلَةٍ فِي مَشَارِيعَ بَيْئِيَّةٍ.

كَانَ مَوْقِعُهَا الْإِلِكْتَرُونِي يَحْمِلُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، الَّتِي شَدَّتْ انْتِبَاهِي
عَلَى الْفُورِ:

«نَحْنُ مَشْرُوعُ تَعْلِيمٍ غَيْرِ رَسْمِيٍّ مُكْرَّسٌ لِلانْتِقَالِ الْبَيْئِيِّ الْاجْتِمَاعِيِّ
فِي الْأَنْدَلُسِ، جَنُوبَ إِسْبَانِيَا. بِأَكْثَرِ مِنْ خَمْسَةِ وَثَلَاثِينَ عَاماً مِنْ
اللُّعْبِ وَالْعَمَلِ وَالْبَحْثِ وَالتَّعَلُّمِ وَالْاخْتِبَارِ، نَسْعَى إِلَى إِيْلَهِامِ النَّاسِ مِنْ
جَمِيعِ أَرْجَاءِ الْعَالَمِ وَإِشْرَاكِهِمْ فِي الْانْضِمَامِ إِلَى حَرَكَةٍ نَحْوِ ثَقَافَةِ
الْعِنَايَةِ بِالْكَائِنَاتِ وَبِالْكَوْكَبِ.»

أَغْرَتْنِي فِكْرَةُ الْإِقَامَةِ هُنَاكَ عَلَى الْفُورِ.

انغماسٌ في فُقاعةِ حياةٍ

في عام ٢٠١٧، حاملاً فضولاً مخلوطاً بقلق، قصّدت المكان.

اتّسم وُصولي بشيءٍ من التَّحَفُّظِ من قِبَلِ المُقيمين. في الخامسة والخمسين، كُنْتُ مُحاطاً بشبابٍ يَتَمَحَوَّرُ مُتَوَسِّطُ أعمارِهِمْ حَوْلَ الخامسة والعشرين — كَانَ بإمكانِي أَنْ أَكُونَ أَبَاهُمْ. حَذَرُ هُمْ كَانَ مَفْهُوماً. كُنْتُ غَرِيباً تَمَاماً: أَكْبَرَ سِنّاً، لُبْنَانِي-فَرَنْسِي، حَامِلاً مَشْرُوعاً لَمْ يَسْمَعُوا بِهِ أَبَداً، وَمَسِيرَةَ حَيَاةٍ بِلَا تَشَابُهٍ ظَاهِرٍ مَعَ مَسِيرَتِهِمْ.

لكن في غُضُونِ أَيَّامٍ، تَغَيَّرَ شَيْءٌ مَا. حَلَّ الْفُضُولُ مَحَلَّ التَّحَفُّظِ. ثُمَّ حَلَّتْ، شَيْئاً فَشَيْئاً، الْمَوَدَّةُ. تَجَرَّبَتِي، وَنَوَادِرِي، وَطَبْخِي — لَا سِيَّما وَصَفَاتِي اللَّبْنَانِيَّةَ — كَسَبَتْ قُلُوبَهُمْ بِطَرِيقَةٍ لَمْ أَكُنْ أَتَوَقَّعُهَا.

لَمُفَاجَأَتِي، اكْتَشَفْتُ عِدَّةَ نَاطِقِينَ بِالْفَرَنْسِيَّةِ فِي الْمَجْمُوعَةِ: كَنْدِيَّونَ، بَلْجِيكِيُّونَ، وَبَعْضُ الْفَرَنْسِيِّينَ. حَتْمًا، عِنْدَ مَوَاعِيدِ الْوَجَبَاتِ، كَانَتْ تَتَكَوَّنُ مَجْمُوعَتَانِ — النَّاطِقُونَ بِالْإِنْكَلِيزِيَّةِ وَالنَّاطِقُونَ بِالْفَرَنْسِيَّةِ — وَدَاخَلَ هَذِهِ الْأَخِيرَةَ، أَصْبَحْتُ، مِنْ دُونِ أَنْ أُرِيدَ، أَبَا حَنُونًا: أَبُ يَسْهَرُ عَلَى صِغَارِهِ بِمَزِيحٍ مِنَ الْحَنَانِ وَالِدُعَابَةِ الْهَادِئَةِ.

ما وَجَدْتُهُ هُنَاكَ

خِلَالَ إِقَامَتِي، اكْتَشَفْتُ الزَّرَاعَةَ الْمُعَمَّرَةَ — لَا بَوْصِفَهَا نَظَرِيَّةً بَلْ مُمَارَسَةً يَوْمِيَّةً، فَنَّا مِنْ فُنُونِ الْعَيْشِ فِي انْسِجَامٍ مَعَ الطَّبِيعَةِ. شَارَكْتُ فِي وَرَشَاتٍ مُكَنَّفَةٍ، وَتَعَاوَنْتُ مَعَ مُقِيمِينَ آخَرِينَ فِي تَصْمِيمِ حَدِيقَةٍ مُسْتَدَامَةٍ، وَتَعَلَّمْتُ كَيْفَ أَدْمِجُ هَذِهِ الْأَسَالِيبَ فِي شَانِيَا.

لَكِنَّ مَا أَدْهَشَنِي أَكْثَرَ كَانَ الْغِنَى الْإِنْسَانِي لِهَذِهِ الْجَمَاعَةِ.

تَحْتَ مَظَاهِرِهِمُ الْمَرِحَةَ وَنِقَاشَاتِهِمُ الْحَامِيَّةَ، كَانَتْ تَخْتَبِئُ فِي الْغَالِبِ جِرَاحٌ عَمِيقَةٌ: نِزَاعَاتٌ عَائِلِيَّةٌ، قِصَصُ هُجْرَانٍ، اضْطِرَابَاتٌ كَالنَّوْحِ أَوْ ثَنَائِيَّةِ الْقُطْبِ. مَعَ الْوَقْتِ، بَا حَوَا لِي بِهِذِهِ الْأَشْيَاءَ — وَاحِدًا تَلَوُ الْآخَرَ، فِي زَوَايَا هَادِئَةٍ، حَوْلَ وَجَبَاتٍ مُشْتَرَكَةٍ. أَصْبَحْتُ صَاحِبَ سِرٍّ. عَمَّا مَرِحًا قَادِرًا عَلَى الْإِصْغَاءِ مِنْ دُونِ حُكْمٍ، وَعَلَى تَقْدِيمِ نَصَائِحَ بَلُطَفٍ، وَعَلَى مُشَارَكَتِهِمْ لَحَظَاتٍ مِنَ الْخِيَالِ الْخَالِصِ. الدَّوْرَانِ لَمْ يَنْعَارِضَا. بَلْ عَلَى الْعَكْسِ، كَانَ أَحَدُهُمَا يُتِيحُ الْآخَرَ.

مَصَاعِبُ الْيَوْمِي

لَمْ يَكُنْ كُلُّ شَيْءٍ مُنْسَجِمًا، بِالطَّبَعِ.

قَرَارٌ مِنْ قَرَارَاتِ الْجَمَاعَةِ كَانَ يُحَيِّرُنِي بِصِدْقٍ: رَفَضُهُمْ لَاسْتِعْمَالِ الْبَرَّادَاتِ — حَتَّى فِي مُنَآخٍ شَبِهُ صَحْرَاوِيِّ، حَيْثُ كَانَتْ دَرَجَاتُ الْحَرَارَةِ الصَّيْفِيَّةِ قَاسِيَةً. إِذَا كَانَ هَذَا يَنْدَرِجُ فِي مَبَادِيئِهِمُ الْبَيْئِيَّةِ، فَإِنْ رُؤْيَا الْأَطْعَمَةِ تَتَلَفُ مِنْ غِيَابِ جِفْظٍ أَوَّلِيٍّ كَانَتْ تَبْدُو لِي

القَطْرَةُ وَالْمُحِيطُ

مُتَنَاقِضَةً مَعَ هَدَفِ تَقْلِيلِ الإِهْدَارِ نَفْسِهِ. طَرَحْتُ السُّؤَالَ مَرَّةً،
بِدَبْلُو مَاسِيَّةٍ، ثُمَّ تَرَكْتُهُ يَسْتَرِيحُ. بَعْضُ الْخِلَافَاتِ لَيْسَتْ مَصْنُوعَةً
لِنَحْلٍ — فَقَطْ لِنُتْلَاحَظَ وَنُحْتَرَمَ.

مَا كَانَ يَبْقَى، أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ مِنَ الْخِلَافَاتِ، هُوَ لَحَظَاتُ التَّوَاصُلِ
الْأَصِيلِ. أَصْبَحَ فَلَا فِلِي أُسْطُورَةً صَغِيرَةً دَاخِلَ الْمَجْمُوعَةِ. وَفِي لَيْلَةٍ
مَا قَبْلَ رَحِيلِي، حَضَرْتُ بِيْتْرَا عَلَى الْحَطَبِ لِكُلِّ الْجَمَاعَةِ — وَلَيْمَةً
وَدَاعٍ احْتَقَلَ بِهَا فِي فَرَحٍ وَصَدَاقَةٍ حَتَّى وَقْتُ مُتَأَخَّرٍ فِي اللَّيْلَةِ
الْأَنْدَلُسِيَّةِ الَّتِي مَا زِلْتُ دَافِنَةً. هَذِهِ الْأَمْسِيَّةُ مِنَ الْمُشَارَكَةِ كَانَتْ أَكْثَرَ
بِكَثِيرٍ مِنْ مُجَرَّدِ وَدَاعٍ. كَانَتْ طَرِيقَتِي، عَلَى شَاكِلَتِي الْخَاصَّةِ،
لِزَرْعِ بُذُورِ شَانِيَا قَادِمَةٍ — جَمَاعَةٌ تَكُونُ فِيهَا التَّغْذِيَّةُ وَالذِّفَاءُ
وَالْحُضُورُ دَائِمًا فِي الْمَرْكَزِ.

رَحِيلٌ مُؤَثِّرٌ

فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِيِ، اجْتَمَعُوا لِيُودِّعُونِي.

وَأَعْطُونِي الْبِطَاقَةَ.

قَرَأْتُهَا وَاقِفًا فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ، مُحَاطًا بِوُجُوهِ لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُهَا
قَبْلَ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ، وَسَاحِلُهَا فِي دَاخِلِي بَقِيَّةَ حَيَاتِي. تِلْكَ الْكَلِمَاتُ —
مَنَارَةٌ، شُكُوكٌ، مُصَالِحَةٌ — قَالَتْ لِي شَيْئًا لَمْ أَكُنْ أَتَوَقَّعُ تَعَلُّمَهُ فِي
شِبْهِ صَحْرَاءِ الْأَنْدَلُسِ: أَنْ أَنْفَعَ مَا يُمَكِّنُنِي تَقْدِيمَهُ لَيْسَ رُؤْيَا وَلَا

مَشْرُوعاً وَلَا مَجْمُوعَةً مِنَ الْكَفَاءَاتِ. كَانَ بَبَسَاطَةِ الْإِسْتِعْدَادِ
لِلْحُضُورِ. الْإِصْغَاءُ مِنْ دُونِ حُكْمِ. الْمُشَارَكَةُ مِنْ دُونِ تَحْقُظِ.
هَذَا أَيْضاً، كَانَ دَرَساً لثَانِيَا.

دَرَسٌ لِلْمُسْتَقْبَلِ

هَذِهِ التَّجَرُّبَةُ الْأَنْدَلُسِيَّةُ تَرَكَتْ فِي نَفْسِي بَصْمَةً عَمِيقَةً. عَلَّمَتْنِي أَنَّ
الْحُلُولَ الْبَيْئِيَّةَ يَجِبُ أَنْ تَسْتَنِدَ إِلَى أُسَاسَاتٍ إِنْسَانِيَّةٍ وَعَمَلِيَّةٍ وَوَاقِعِيَّةٍ
— وَأَنَّ الْإِسْتِدَامَةَ لَيْسَتْ تَحْدِيثاً تَقْنِيّاً فَحَسْبَ، بَلْ تَحَدٍّ عِلَائَقِيٍّ. لَا
يُمْكِنُ لِمَشْرُوعٍ أَنْ يَسْتَمِرَّ مِنْ دُونِ احْتِضَانِ كُلِّ غِنَى وَتَعَقُّيدِ
التَّفَاعُلَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ.

مُسَلِّحاً بِهَذَا الْفَهْمِ، عُذْتُ إِلَى بُورْدُو بِرُؤْيَا مُصَقَّلَةٍ — لَمْ تَعُدْ
فَقَطَّ لِلْفُرَى الْبَيْئِيَّةِ، بَلْ لِمَسَاكِينِ فَرْدِيَّةٍ مُتَكَيِّفَةٍ مَعَ وَقَائِعِ عَالَمِنَا. مَنَازِلُ
قَادِرَةٌ عَلَى احْتِضَانِ لَا أَجْسَادٍ فَحَسْبَ، بَلْ حَيَوَاتٍ.

الْمَنَارَةُ، فِي الْخِتَامِ، احْتَاجَتْ إِلَى الْعَتَمَةِ بِقَدْرِ مَا احْتَاجَ إِلَيْهَا أَوْلَاكَ
الَّذِينَ التَّفَتُّوا إِلَيْهَا طَلَباً لِلنُّورِ.



الفصل العاشر

نادي شاسترا

فرنسا — الهند — جنوب أفريقيا، ٤ سبتمبر ٢٠٢٤ — القراءة
عبر «زوم»

الاسم الأول

رَفَعَ عَيْنَيْهِ عَنْ وَرَقَةِ النَّخِيلِ، ابْتَسَمَ بَيِّقِينَ هَادِيٍّ، ثُمَّ نَطَقَ. أَوَّلًا،
اسمي الْفَرَنْسِيَّ. ثُمَّ اسمي اللَّبْنَانِيَّ. بهذا التَّرتيبِ تَمَامًا — كَمَا يَرْدَانِ
فِي وَثَائِقِي الرَّسْمِيَّةِ.

بَقِيْتُ ثَابِتًا أَمَامَ شَاسْتِي فِي بوردو، عَلَى بُعْدِ آلَافِ الْكِيلُومِترَاتِ
مِنَ الْكَاهِنِ وَمُتَرَجِّمِهِ فِي الْهِنْدِ، وَعَلَى آلَافِ أُخْرَى مِنَ الْمُسَيَّرَةِ
الْمُتَّصِلَةِ مِنْ جَنُوبِ أَفْرِيقِيَا. كَانَ اتِّصَالُ «زوم» (Zoom) يَبْدُو فِي
ظَاهِرِهِ كاجْتِمَاعٍ عَادِيٍّ عَنْ بُعْدٍ. لَكِنَّ مَا كَانَ يَجْرِي فِيهِ لَمْ يَكُنْ عَادِيًّا
فِي شَيْءٍ.

كُنْتُ أَحْمِلُ اسْمِي الْفَرَنْسِيَّ مُنْذُ عُقُودٍ — اخْتَرْتُهُ عِنْدَ تَجَنُّسِي،
وَتَبَيَّنَتْهُ تَيْسِيرًا لِلْفِظِ فَحَسَبَ، قَرَارًا عَمَلِيًّا اتَّخَذَهُ رَاشِدٌ فِي بَلَدٍ غَرِيبٍ.
لَمْ يَكُنِ الْاسْمُ الَّذِي أُعْطِيْتُهُ عِنْدَ الْوِلَادَةِ. لَمْ يَكُنِ الْاسْمُ الَّذِي كَانَتْ
أُمِّي تَهْمِسُهُ عَلَيَّ فِي الطُّفُولَةِ. كَانَ اسْمًا اخْتَرْتُهُ بِنَفْسِي، بِحُرِّيَّةٍ،

القَطْرَةُ والمُحِيط

كَفَعَلِ إِرَادَةً وَاعِيَةً. ومع ذلك، كَانَ مَنْقُوشاً عَلَى وَرَقَةٍ نَخِيلٍ قَبْلَ
آلَافِ السِّنِينَ مِنْ أَنْ اتَّخَذَ هَذَا الْاِخْتِيَارَ.

بَقِيَتْ مَعَ ذَلِكَ طَوِيلًا. وَلَا أزالُ مَعَهُ، بِمَعْنَى مَا.

ذَلِكَ أَنَّ هَذَا الْاسْمَ — هَذَا الْاسْمَ الْخَاصَّ، الشَّخْصِيَّ، الْمُخْتَارَ
بَحْرِيَّةً — إِنْ كَانَ هُنَاكَ مُسَبِّقًا، يَنْتَظِرُ قِرَاءَتَهُ فِي اللَّحْظَةِ الْمَلَأِمَةِ،
فَالسُّؤَالُ الَّذِي يُثِيرُهُ لَا يُحَلُّ بِهَذِهِ السُّهُولَةِ:

هَلْ نَقُودُ حَيَاتِنَا حَقًّا؟ أَمْ نَلْعَبُ سِينَارِيو كُتِبَ قَبْلَ وُصُولِنَا؟ وَإِنْ كَانَ
كَذَلِكَ — مَنْ كَتَبَهُ؟ وَلِمَاذَا؟

صَبَاحُ عَادِيٍّ، رِحْلَةٌ لَا تُنْسَى

كَانَ الْأَمْرُ قَدْ بَدَأَ بِبَسَاطَةٍ كَافِيَةٍ. لِهَذِهِ الْاِسْتِشَارَةِ، لَمْ أُرْسِلْ سِوَى
بَصْمَةٍ إِبْهَامِي الْأَيْمَنِ — وَهِيَ الْأَسَاسُ بِالنِّسْبَةِ لِلرِّجَالِ — حَيْثُ
مُسِخَتْ وَأُرْسِلَتْ إِلَى كَاهِنِ «نَادِي شَاسْتْرَا» (Nāḍī Sāstra)
وَمُتَرَجِمِهِ فِي الْهِنْدِ. لَمْ تُطْلَبْ مِنِّي أَيُّ مَعْلُومَةٍ أُخْرَى. لَا اسْمِي، وَلَا
تَارِيخُ مِيلَادِي. وَلَا تَفْصِيلُ شَخْصِيٍّ وَاحِدٍ.

تَخْدُمُ هَذِهِ الْبَصَمَاتُ الْفَرِيدَةُ فِي تَحْدِيدِ مَوْقِعِ الرِّبَاطَاتِ
(bundles) الَّتِي تَحْوِي السِّجَالَاتِ الْخَاصَّةَ بِشَخْصٍ بَعِيْنِهِ —
مَجْمُوعَاتٌ تَبْلُغُ مِائَةً وَثَمَانِي وَرَقَةً نَخِيلٍ، مَحْفُوظَةٌ بِعِنَايَةٍ عَبْرَ
الْقُرُونِ، مَنْقُوشَةٌ بِصِبْغَةٍ قَدِيمَةٍ مِنْ «التَّامِيلِيَّةِ» (tamoul) بِأَيْدِي
حُكَمَاءَ بَلَّغُوا حَالَاتٍ مُوسَّعَةً مِنَ الْوَعْيِ.

يُؤَكِّدُ التَّقْلِيدُ أَنَّ هَذِهِ الْأَوْرَاقَ أَمْلَاهَا ثَمَانِيَّةٌ عَشَرَ «ريشي»
(Rishi) من عِظَامِ حُكَمَاءِ الْهِنْدِ — مِنْ بَيْنِهِمْ «المَهَارِشِي أَعَسْتِيَا»
(Maharishi Agastya)، أَحَدُ أَكْثَرِ الْحُكَمَاءِ تَكْرِيمًا فِي هَذَا
النَّسَبِ. أَمَّا وَرَقَتِي، فَسَأَعْلَمُ مِنَ الْكَاهِنِ، أَنَّهَا أُمْلِيَتْ عَلَى لِسَانِ
أَعَسْتِيَا نَفْسِهِ.

بَدَأَتِ الْعَمَلِيَّةُ بِمَرَحَلَةٍ تُسَمَّى «المُطَابَقَةُ» (matching) —
حَيْثُ يَقْرَأُ الْكَاهِنُ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ، وَرَقَةً تَلُو الْأُخْرَى، الْأَوْرَاقَ
الصُّلْبَةَ الْمَجْمُوعَةَ فِي رِبَاطَاتٍ، كُلُّ وَرَقَةٍ مَنقُوشَةٌ بِجِدْرِ فِي لُغَةٍ
مُقَدَّسَةٍ سَيَّالَةٍ، تُسْتَعْمَلُ مِنْذُ قُرُونٍ لِنَقْلِ هَذِهِ الْحِكْمَةِ. كَانَ صَوْتُهُ يَعْلو
وَيَنْخَفِضُ كَصَلَاةٍ سَيَّالَةٍ أَسْرَةٍ. بَدَتْ كُلُّ كَلِمَةٍ تَهْتَرُ فِي الْفَضَاءِ،
حَامِلَةً ثِقَلًا مَهِيْبًا.

فَنَحَ هَذَا التَّرْتِيلُ فِي دَاخِلِي شَيْئًا — مَوْجَةٌ لَطِيفَةٌ، كَأَنَّ هَذِهِ
الْأَصْوَاتَ الْقَدِيمَةَ تُوقِظُ ذَاكِرَةً نَسِيَهَا عَقْلِي مِنْذُ زَمَنٍ، لَكِنَّ رُوحِي
تَعَرَّفَتْ إِلَيْهَا فَوْرًا.

لَمْ تَكْشِفِ الرِّبْطَةُ الْأُولَى عَنْ أَيِّ شَيْءٍ يَخْصُنِي. لَكِنْ عِنْدَ الثَّلَاثِ
الْأَوَّلِ مِنَ الرِّبْطَةِ الثَّانِيَةِ، تَبَدَّلَ كُلُّ شَيْءٍ.

بِدَقَّةِ الْإِنْكَشَافَاتِ

بَعْدَ الْأَسْمَاءِ جَاءَ كُلُّ مَا تَبَقَّى — بِدَقَّةٍ لَمْ تَتْرُكْ لِي أَيَّ مُتَسَعٍ لِشَاكٍّ
مُرِيحٍ.

القَطْرَةُ والمُحِيط

أُصولي. الأسماء الدَّقِيقَةُ لِوَالِدَيَّ. تَارِيخُ مَوْلَدِي وَسَاعَتُهُ.
عَلَاقَتِي الْفَرِيدَةُ الْمُعَقَّدَةُ بِأَخِي. صِلَتِي الْحَشَوِيَّةُ، الَّتِي لَا بَدِيلَ عَنْهَا،
بِأُمِّي — وَالْمَسَافَةُ الْعَاطِفِيَّةُ الَّتِي وَسَمَتَ طَوِيلًا عَلَاقَتِي بِأَبِي. ثُمَّ:
تَعَلَّقِي الصَّادِقُ الْمُتَنَاعِمُ بِأَخْتِي.

تَوَرُّطِي فِي قَضِيَّةٍ قَانُونِيَّةٍ مُعَقَّدَةٍ، طَالَ أَمْدُهَا، لَكِنِّهَا سَتَنْتَهِي
لِصَالِحِي. الثِّقَةُ التِّلْقَائِيَّةُ الَّتِي أَمْنَحُهَا لِلْغُرَبَاءِ — لَكِنَّ الطَّابِعَ الْحَاسِمَ
الَّذِي أَسْحَبُهَا بِهِ مِمَّنْ يَخُونُونَهَا.

وَتَحْذِيرُ كُنْتُ قَدْ حَدَسْتُه طَوِيلًا، لَكِنِّي لَمْ أَسْمَعُهُ مَنْطُوقًا بِهَذَا
الْوُضُوحِ قَطُّ: الْغَيْرَةُ تُحِيطُ بِي، حَتَّى مِنْ بَيْنِ الَّذِينَ يَبْدُونَ وَدُودِيَّينَ.
كَانَ بَعْضُهُمْ، رَغَمَ دَفْعِ ظَاهِرِهِمْ، يَأْمَلُونَ سِرًّا فِي قَتْلِي. سَمَاعُ
هَذَا مَنْطُوقًا بِصَوْتِ عَالٍ أَوْضَحَ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً كُنْتُ قَدْ أَحْسَسْتُ بِهَا
سَنَوَاتٍ دُونَ أَنْ أَسْتَطِيعَ تَسْمِيَّتَهَا.

سُؤَالُ الْإِرَادَةِ الْحُرَّةِ

كَيْفَ يُمَكِّنُ لِنَقْلِيدٍ يَتَجَاوَزُ عُمرُهُ أَلْفَيْنِ وَخَمْسَ مِئَةِ سَنَةٍ أَنْ يَحْوِي،
بِهَذِهِ الدِّقَّةِ، أَدَقَّ شَطَايَا حَيَاةٍ لَمْ تَكُنْ قَدْ عُيِّشَتْ بَعْدُ حِينَ كُتِبَتْ
الْأَوْرَاقُ؟

شَرَحَ الْكَاهِنُ أَنَّ هَذِهِ الْأَوْرَاقَ، وَإِنْ كُتِبَتْ قَبْلَ زَمَنِ طَوِيلٍ، لَا
تَنْشَطُ إِلَّا حِينَ تُقْرَأُ فِي اللَّحْظَةِ الْمَلَائِمَةِ. هِيَ تَكْشِفُ مَا يَلْزَمُ لِتَطَوُّرِ

الرَّوح — لا الحَيَاة بأسرها، بَلِ الْمَفَاصِلِ الْجَوْهَرِيَّةِ الَّتِي يَنْبَغِي
عُبُورُهَا.

تَشْهَدُ هَذِهِ الْحِكْمَةُ عَلَى انْفِتَاحِ عَمِيقٍ: لَا حَاجَةَ لِأَنْ تَكُونَ
هِنْدُوسِيًّا، وَلَا حَتَّى مُؤْمِنًا، لِتَكُونَ وَرَقْتُكَ مَوْجُودَةً. هِيَ تُخَاطَبُ
الْجَمِيعَ، فِيمَا وَرَاءَ الْإِيمَانِ وَالثَّقَافَةِ وَالْقَوْمِيَّةِ.

تُؤَكِّدُ بَعْضُ التَّعَالِيمِ أَنَّنَا، بَيْنَ حَيَاتَيْنِ، نَخْتَارُ بِأَنْفُسِنَا وَالِدِينَا
وَامْتِحَانَاتِنَا وَلِقَاءَاتِنَا. وَبِحَسَبِ الْكَاهِنِ، كُنْتُ فِي تَجَسُّدِي السَّادِسِ —
وَلَمْ يَبْقَ لِي سِوَى تَجَسُّدٍ وَاحِدٍ. كَانَتْ هَذِهِ الْوَرَقَةُ قَدْ صِيغَتْ قَبْلَ
آلَافِ السِّنِينَ. وَمَعَ ذَلِكَ، كَانَتْ تَعْرِفُ الْأَسْمَ الَّذِي سَاخَرَتْهُ لِنَفْسِي
فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ.

أَنْحُنُ مُؤَلَّفُو حَيَاتِنَا؟ أَمْ مُمَثِّلُوهَا؟ أَمْ مُجَرَّدُ قُرَاءٍ — نَصِلُونَ،
أَخِيرًا، إِلَى الصَّفْحَةِ الْمَكْتُوبَةِ لَنَا سَلَفًا؟
هَذِهِ الْأَسْئَلَةُ لَمْ تُغَادِرْنِي. وَلَا تَزَالُ مَعِيَ إِلَى الْيَوْمِ.

صَحْوَةُ الرُّوحِ عَبْرَ التَّجَسُّدَاتِ

مِنْ بَيْنِ الْإِنْكَشَافَاتِ، أَعْلَنَ الْكَاهِنُ أَنَّ رُوحِي عَاشَتْ سِتَّةَ تَجَسُّدَاتٍ
قَبْلَ هَذَا، وَلَمْ يَبْقَ لِي سِوَى تَجَسُّدٍ وَاحِدٍ. بَعْدَ هَذَا الْعُبُورِ الْأَرْضِيِّ
الْأَخِيرِ، لَنْ تَكُونَ وَلَادَةٌ جَدِيدَةٌ لِأَزْمَةٍ. سَتَكُونُ خَاتِمَةً دَوْرَةً —
الرُّوحُ، وَقَدْ أَتَمَّتْ دُرُوسَهَا فِي الْمَادَّةِ، حُرَّةً فِي الْإِنْصِمَامِ إِلَى
مُسْتَوًى آخَرَ مِنَ الْوُجُودِ: أَوْسَعِ، وَأَسْطَعِ، فِيمَا وَرَاءَ الثَّنَائِيَّةِ.

القَطْرَةُ وَالْمُحِيطُ

تَرَدَّدَتْ هذه الرُّؤْيَةُ في أعماقي. كَانَتْ تُجَاوِبُ حَدْسِي الْخَاصَّ
بِالطَّبِيعَةِ الدَّوْرِيَّةِ لِلْحَيَاةِ، حَيْثُ كُلُّ تَجَسُّدٍ مَرَحَلَةٌ تَعْلَمُ — تَجَرُّدٌ مِمَّا
لَمْ يَعْذُ لَازِمًا، وَتَعْمِيقٌ لِمَا يَبْقَى جَوْهَرِيًّا.

إِنْ كَانَتْ هذه الْحَيَاةُ هِيَ مَا قَبْلَ الْأَخِيرَةِ، فَإِنَّ كُلَّ امْتِحَانٍ، وَكُلَّ
لِقَاءٍ، وَكُلَّ انْكِشَافٍ، يَأْخُذُ ثِقَلًا خَاصًّا. لَيْسَ نِهَايَةً. بَلْ تَهْيِئَةً. عَوْدَةً
إِلَى الْأَصْلِ الصَّامِتِ لِكُلِّ مَا كَانَ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ، وَمَا سَيَكُونُ.

إِنْبَاءَاتٌ شَخْصِيَّةٌ وَمِهْنِيَّةٌ مُحِيرَةٌ

تَنَاولْتُ الْقِرَاءَةَ أَيْضًا جَوَانِبَ مَلْمُوسَةٍ مِنْ حَيَاتِي الْحَاضِرَةِ وَالْقَادِمَةِ.
أَعْلَنْتُ أَنَّ سَنَتِي ٢٠٢٥ و ٢٠٢٦ سَتَكُونَانِ سَنَتَيِ تَحْدِيَّاتٍ مِهْنِيَّةٍ —
لَكِنْ «شَانِيَا»، فِي عَامِ ٢٠٢٧، سَتُقْلَعُ أَخِيرًا، وَتُصْبِحُ نَجَاحًا
يَضْعُنِي فِي قَلْبِ جَمَاعَةٍ مِنَ الشَّبَابِ. سَيُكِنُّونَ لِي تَقْدِيرًا عَالِيًّا،
يُعْبَرُونَ عَنْ امْتِنَانٍ هَائِلٍ لِمَا سَأَقْدِمُهُ لَهُمْ مِنْ دَعْمٍ وَمَشُورَةٍ وَتَعْلِيمٍ.

تَرَدَّدَ هَذَا فِي أعماقي. كَانَ يُؤَكِّدُ خِيَارًا كُنْتُ قَدْ اتَّخَذْتُهُ — أَنْ
أُكْرِسَ حَيَاتِي لِلْآخَرِينَ، دُونَ زَوَاجٍ، وَدُونَ أَوْلَادٍ، مُعْتَبِرًا أَنَّ كُلَّ
طِفْلٍ، وَكُلَّ شَابٍّ يَسْعَى إِلَى رَجَاءٍ، يَنْتَمِي إِلَى عَائِلَتِي الْكَوْنِيَّةِ.

تَحَدَّثَ الْكَاهِنُ كَذَلِكَ عَنْ صَلَاتِي بِالطُّيُورِ — هذه الْحَمَائِمِ وَسَائِرِ
الْمَخْلُوقَاتِ الْحُرَّةِ الَّتِي تَأْتِي لِتَأْكُلَ مِنْ يَدِي دُونَ خَوْفٍ:

«إِنَّهَا أَرْوَاحٌ مُتَجَسِّدَةٌ. تُدْرِكُ لُطْفَكَ وَتُجَلِّكُ. وَاصِلِ إِطْعَامَهَا. وَاصِلِ
مَنْحَا انْتِبَاهَكَ.»

دربُ الروح في الآتي

تُمْ أَتَتْ أَفَاقٌ أَوْسَعُ، وَأَبْعَدُ. تَنْبَأُ بِكِتَابَةِ كِتَابٍ — وَهُوَ مَا أَضَحَكَنِي.
قُلْتُ لَهُ إِنَّهُ سَيَكُونُ بِالْأَحْرَى مُدَوَّنَتِي الَّتِي أُحَرِّكُهَا مُنْذُ سَنَوَاتٍ. وَمَعَ
ذَلِكَ، أَدْرِكُ الْيَوْمَ أَنَّ هَذِهِ السَّيْرَةَ الذَّاتِيَّةَ أَبْصَرْتَ النُّورَ بَعْدَ ذَلِكَ بِنَحْوِ
عَامٍ، دُونَ أَيِّ تَخْطِيطٍ. كُنْتُ قَدْ نَسِيتُ التَّنَبُّؤَ نَفْسَهُ. فِي الْحَقِيقَةِ،
جَاءَتْ مِنْ تَلْقَاءِ ذَاتِهَا — كَمَا تَأْتِي الْأَشْيَاءُ الْمَكْتُوبَةُ مُسَبِّقًا، حِينَ
تَنْضِجُ اللَّحْظَةَ.

أَعْلَنَ أَنِّي، فِي السَّبْعِينَ وَالثَّانِيَةِ وَالسَّبْعِينَ، سَابِدًا حَجًّا رُوحِيًّا
عَبَرَ الْعَالَمَ — سَعِيًّا نَحْوَ الصَّحْوَةِ وَالْإِتِمَامِ عَلَى مَدَى سَنَتَيْنِ، أَزُورُ
فِيهِ مَرَاكِزَ وَأَمَاكِنَ سَاسَاهُمْ فِيهَا بِفَاعِلِيَّةٍ، بِالتَّعْلِيمِ وَالدَّعْمِ الْمَالِيِّ.

فِي الثَّالِثَةِ وَالسَّبْعِينَ، سَابِيعُ كُلِّ شَيْءٍ. سَأَتَوَقَّفُ عَنِ الْعَمَلِ
لِنَفْسِي — لَكِنِّي سَأَسْتَمِرُّ فِي الْعَمَلِ مِنْ أَجْلِ الْآخَرِينَ، لِأَنَّ رِسَالَتِي
هِيَ الْعَطَاءُ وَالْمُشَارَكَةُ. فِي الْخَامِسَةِ وَالسَّبْعِينَ، سَأُغَيِّرُ نَمَطَ حَيَاتِي
تَغْيِيرًا كَامِلًا.

سَأَلْتُهُ، إِنْ كُنْتُ، مَعَ تَقَدُّمِ السِّنِّ، سَأَفْقِدُ الذَّاكِرَةَ — كَمَا فَقَدَهَا
جَدِّي — أَوْ سَأَحْتَاجُ إِلَى مُمَرِّضٍ مُسَاعِدٍ. طَمَأَنَّنِي: ذَاكِرَتِي سَتَبْقَى
سَلِيمَةً، وَجَسَدِيًّا، سَأَكُونُ قَادِرًا عَلَى تَلْبِيَةِ احْتِيَاجَاتِي بِنَفْسِي. فِي
الثَّامِنَةِ وَالسَّبْعِينَ، سَأُغَادِرُ هَذَا الْعَالَمَ إِثْرًا تَعَقُّدٍ نَفْسِيٍّ وَقَلْبِيٍّ. غَيْرَ أَنَّهُ

القَطْرَةُ والمُحِيط

أُضَافَ أَنَّ بَعْضَ المُمَارَسَاتِ الرُّوحِيَّةِ — «البوجات» (Poojas) — قد تُطِيلُ حَيَاتِي إِلَى الحَادِيَةِ والثَّمَانِينَ.

أوصى كَذَلِكَ باليوغا، وبتَوَاصُلٍ مُنْتَظِمٍ مع الطَّبِيعَةِ — كِلَاهُمَا يُنْعِشُنِي طَاقِيًّا. غُنْصُرَايَ، قَالَ، هُمَا المَاءُ والأَرْضُ.

أُضَحَّكْتَنِي هَذِهِ النَّصِيحَةُ: كَانَ طَبِيبِي قد قَالَ لِي تَوَّأ مَا يَكَادُ يَكُونُ الشَّيْءُ نَفْسَهُ، لِأَسْبَابٍ مُخْتَلِفَةٍ تَمَامًا. سَاعَاتِي الطَّوِيلَةُ مِنَ الجُمُودِ أَمَامَ الكُمْبِيُوتَرِ كَانَتْ قد رَفَعَتْ ثَلَاثِيَّاتِي الدَّهْنِيَّة؛ نَصَحَنِي بِشِدَّةٍ بِأَنْ أَتَحَرَّكَ، وَأَمْسِي، وَأُمَارِسَ اللَّيَاقَةَ. أَجَبْتُهُ بِأَنِّي أَفْضِلُ اليوغا. مَرَّةً أُخْرَى، لَاحَظْتُ أَنَّ «نَادِي شَاسْتَرَا» كَانَ قد تَنَبَّأَ بِذَلِكَ — حَتَّى حِينَ نَحْيَيْهِ جَانِبًا فِي حِينِهِ. وَمِنَ المُذْهِلِ أَنْ نَرَى كَمْ نَحْتَفِظُ فَقَطْ بِمَا يَهْمُنَا فِي لَحْظَةٍ بَعِيْنَهَا، وَكَمْ يَنْتَظِرُ البَاقِي، بِصَبْرٍ، أَنْ يُعْتَرَفَ بِهِ لِاحِقًا.

شَعِيرَةُ النَّارِ

كَانَ مِنْ بَيْنِ التَّوَصِيَّاتِ شَعِيرَةُ نَارٍ — «هُومَا» (Homa) — أَخَذُ أَقْدَمِ الطُّقُوسِ الفِيدِيَّةِ وَأَقْوَاهَا. شَرَحَ الكَاهِنُ أَنَّ هَذِهِ النَّارَ المُقَدَّسَةَ لَيْسَتْ رَمْزًا بَسِيطًا، بَلْ قَنَاءٌ حَيَّةٌ لِلتَّطْهِيرِ. بِالْقَرَابِينِ المُلْقَاةِ فِي اللَّهَبِ، وَبِالْمَنْتَرَاتِ (mantras) المُرْتَلَّةِ بِحَرَارَةٍ، يُمَكِّنُ لِلانْسِدَادَاتِ الكَارْمِيَّةِ الَّتِي تَكْشِفُهَا وَرَقَّةُ «نَادِي شَاسْتَرَا» أَنْ تُسْتَهْلَكَ فِي النَّارِ،

وَتَتَحَوَّلَ إِلَى نُورٍ، وَتُحَرَّرَ فِي الْأَثِيرِ. أَنَا، الَّذِي اعْتَدْتُ النُّفُورَ مِنْ
الطَّقْسِ الدِّينِيِّ، تَأَثَّرْتُ فِي الْعُمُقِ.

بَعْدَ أَشْهُرٍ قَلِيلَةٍ، أُقِيمَتِ الشَّعِيرَةُ فِي مَعْبَدٍ تَقْلِيدِيٍّ فِي الْهِنْدِ، عِنْدَ
فَجْرِ يَوْمٍ مُبَارَكٍ. زُيِّنَ الْمَذْبُحُ بِالْأَزْهَارِ، وَالْأُرْزُ، وَالسَّمْنِ الْمُصَفَّى،
وَحَشَبِ الصَّنَدَلِ. أُضْرِمَتِ النَّارُ الْمُقَدَّسَةُ وَفَقَ التَّرْتِيبِ الطَّقْسِيِّ،
تُرَافِقُهَا مَنَازِلُ تَعُودُ إِلَى آلَافِ السِّنِينَ.

رَغَمَ غِيَابِي بِالْجَسَدِ، أَحَسَسْتُ بِدَبْذَبَتِهَا فِي الْعُمُقِ. أُرْسِلَ إِلَيَّ
مَقْطَعٌ فِيدِيو: كَانَتِ النَّارُ تَرْفُصُ كَلِيسَانٍ ذَهَبِيٍّ مُضِيءٍ، يَلْتَهُمُ
الْقَرَابِينَ عَلَى إِيقَاعِ التَّرْتِيلِ «السَّنَسْكَرِيَّتِي» (sanskrit). كَانَ
الكَاهِنُ، فِي تَرَكُّزٍ تَامٍ، يَنْطِقُ اسْمِي مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى — يَنْسُجُهُ فِي
الصَّلَوَاتِ، يُرْسِلُ بَرَكَاتٍ عَبْرَ اللَّهَبِ. شَعَرْتُ بِصِلَةٍ غَرِيبَةٍ بِهَذَا
الْمَشْهَدِ، كَأَنَّ جُزْءاً مِنِّي قَدْ سَافَرَ إِلَى هُنَاكَ لِيَشْهَدَ، فِي صَمَتٍ،
تَحَوُّلاً لَا يُرَى.

قَالَتِ الْوَرَقَةُ: «هَذَا الطَّقْسُ سَيَكْسِرُ الْإِنْسِدَادَاتِ». وَبِالْفِعْلِ، مُنْذُ
ذَلِكَ الْحِينِ، لَأَنْتِ مُقَاوِمَاتٌ كَانَتْ رَاكِدَةً. انْفَرَجَتْ عُقْدٌ. انْفَتَحَتْ
أَبْوَابٌ جَدِيدَةٌ. هَوَاءٌ جَدِيدٌ يَسْرِي الْآنَ فِي حَيَاتِي.

لَمْ تَكُنْ هَذِهِ النَّارُ مَشْهَداً. كَانَتْ غُبُوراً — قُرْبَانٌ رُوحِي
لَانِعَتِاقِهَا.

القَطْرَةُ وَالْمُحِيطُ

أَصْدَاءَ بَيْنَ «نادي شاسترا» و«آياهواسكا»

حينَ أَنْظَرُ إِلَى الْوَرَاءِ، لَا يَسْغُنِي إِلَّا أَنْ أَصِلَ هَذِهِ التَّجَرِبَةَ بِرِحْلَتِي
الْأُولَى مَعَ الْآياهواسكا، قَبْلَ تِسْعِ سَنَوَاتٍ. خِلَالَ ذَلِكَ الْعُبُورِ
الْبَاطِنِيِّ، هَمَسَتِ الْأُمُّ آياهواسكا إِلَيَّ، بِصَفَاءٍ مُذْهِلٍ:

«إِتَّبِعْ حَدْسَكَ — سَتَعْرِفُ مَا تَفْعَلُ.»

رِسَالَةٌ صَافِيَّةٌ مِنْ ثِقَةٍ. دَعْوَةٌ لِأَنْ أَسْتَسْلِمَ لِجَرَيَانِ الْحَيَاةِ الْمُقَدَّسِ،
دُونَ حَاجَةٍ إِلَى فَهْمِ كُلِّ شَيْءٍ سَلْفًا.

أَمَّا «نادي شاسترا»، الَّذِي جَاءَ بَعْدَ سَنَوَاتٍ، فَبَدَأَ جَوَابًا دَقِيقًا
عَلَى هَذَا التَّدَاوِي. حَيْثُ كَانَتْ الْآياهواسكا تَفْتَحُ فُضَاءَ الْإِحْسَاسِ،
وَالسِّرِّ، وَالْوَصْلِ الْمُبَاشَرِ بِالوَاحِدِ — كَانَتْ الْوَرَقَةُ تَنْفُشُ قَدْرِي
بُوضُوحٍ صَرِيحٍ. كَأَنَّ الْكَوْنَ، بَعْدَ أَنْ عَلَّمَنِي الْإِصْغَاءَ إِلَى قَلْبِي،
يُنَاوِلُنِي الْآنَ خَرِيطَةً.

كَانَتْ كُلُّ كَلِمَةٍ يَقْرُؤُهَا الْكَاهِنُ تَتَرَدَّدُ مَعَ مَرَاجِلِ كُنْتُ قَدْ عَبَرْتُهَا
— تَكْشِفُ بِبَسَاطَةٍ مَا كَانَتْ رُوحِي تَعْرِفُهُ مُنْذُ الْبَدَأِ. تَقْلِيدَانِ يَمْتَدَّانِ
آلَافَ السِّنِينَ، يَنْطِقَانِ بِلُغَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ، يُشِيرَانِ إِلَى الْمَكَانِ نَفْسِهِ.

مِنْ نَفْسِ الْأُمِّ آياهواسكا إِلَى نَارِ «نادي شاسترا»، انْغَلَقَتْ
دَائِرَةٌ. دَوْرَةُ اعْتِرَافٍ، وَتَطْهِيرٍ، وَاصْطِفَافٍ — حَيْثُ اتَّخَذَ
الْلاَمَرُّ شَكْلًا، وَحَيْثُ عَانَقَ الْقَدِيمُ الْحَاضِرَ لِيُولَدَ الْآتِي.

كُلَّمَا تَقَدَّمْتُ، إِزْدَادَ دَرْبِي وَضُوحاً — لَا كَمَسَارٍ صُلْبٍ، بَلْ
كَاصْطِفَافٍ مُقَدَّسٍ بَيْنَ الْحَدْسِ وَالْوَحْيِ. لَا يُنَاقِضُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ.
مَعاً، يَتَّحِدَانِ فِي سِمْفُونِيَّةٍ صَامِتَةٍ، تُدَبِّرُهَا حِكْمَةٌ أَعْلَى.
كَأَنَّ الْكَوْنَ، عَبَرَ هَذَيْنِ التَّقْلِيدَيْنِ الْمُمتَدِّينِ فِي الْقَدَمِ، كَانَ يَهْمِسُ
إِلَيَّ الشَّيْءَ نَفْسَهُ مُنْذُ الْبَدْءِ:
أَنَا تَمَاماً حَيْثُ يَنْبَغِي أَنْ أَكُونَ. وَكُلُّ شَيْءٍ، فِي الْحَقِيقَةِ، كَانَ دَائِماً
مُوجَّهاً.



الخاتمة

ظَنَنْتُ طَوِيلًا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ نَفْهَمَ قَبْلَ أَنْ نَسْتَطِيعَ أَنْ نَنْقُلَ. ثُمَّ
اكتَشَفْتُ أَنَّهُ يَكْفِي أحياناً أَنْ نَقُولَ، ببساطة، ما هو حَقِيقِي — وإن
كَانَتْ تِلْكَ الْحَقِيقَةُ ناقِصَةً، أو غَيْرَ كَامِلَةٍ، أو لَا تَزَالُ فِي طَوْرِ
الصَّيرُورَةِ.

هذا الْكِتَابُ لَيْسَ بَيَانًا، وَلَا بُرْهَانًا، وَلَا حَقِيقَةً ثَابِتَةً. هُوَ شَهَادَةُ غُبُورِ
— رَسْمُ دَرْبٍ دَاخِلِيٍّ رَافَقَنِي طَوَالَ الطَّرِيقِ: ذَلِكَ التَّوَثُّرُ الْمُثْمَرُ بَيْنَ
مَا يُجَذِّرُنِي وَمَا يَسْتَدْعِينِي إِلَى مَا وَرَاءَ. بَيْنَ ثِقَلِ الْأَصُولِ وَجاذِبِيَّةِ
الْلامَرِّيِّ. بَيْنَ الْقَطْرَةِ وَالْمُحِيطِ.

كُلُّ لِقَاءٍ، وَكُلُّ رُؤْيَا، وَكُلُّ امْتِحَانٍ مَنقُولٍ فِي هَذِهِ الصَّفَحَاتِ، هُوَ
مُحَاوَلَةٌ لِفَتْحِ جَوَارٍ — بَيْنَ الْحَمِيمِ وَالْكَوْنِي، بَيْنَ مَا عُيِشَ وَمَا لَا
يُمْكِنُ قَوْلُهُ تَمَامًا. وَإِنْ وَجَدْتَ بَعْضَ السُّطُورِ صَدَى فَيْكَ، فَلَرُبَّمَا
كَانَ ذَلِكَ سَبَبَ وُجُودِهَا الْوَحِيدِ.

لَا أَعْلَمُ إِلَى أَيْنَ سَيَقُودُنِي هَذَا الدَّرَبُ. لَكِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يُكْتَبُ
بِالْإِرَادَةِ وَحْدَهَا. يَنْبِثُ مِنْ فُضَاءٍ صَامِتَةٍ — شَاسِعَةٍ، حَيٍّ — تَنْبُعُ
مِنْهُ الدَّفْعَةُ الصَّادِقَةُ حِينَ تَنْضِجُ اللَّحْظَةُ. يُسَمَّى بَعْضُهُمْ هَذَا الْفُضَاءَ
اللَّهِ. وَيُسَمِّيهِ آخَرُونَ « الطَّاو » (Tao)، أو الدَّاتِ الْعُلْيَا، أو الْخَوَاءَ،
أو الْمَحْبُوبَ. وَأَنَا، أَسْمِيهِ ببساطةٍ: الْوَاحِدِ.

أَعْلَمُ كَذَلِكَ أَنِّي لَا أَمْشِي وَحْدِي. مُنْذُ تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْبَعِيدَةِ مِنْ عَامِ ٢٠٠٨، حِينَ فَقَدْتُ كُلَّ رَغْبَةٍ فِي الْحَيَاةِ، وَحِينَ جَاءَتْ حُضُورَاتُ صَامِتَةٍ لِنْتَظُرَ إِلَيَّ بِبَسَاطَةٍ، لَمْ يَنْقَطِعْ هَذَا الْخَيْطُ. لَمْ أَعُدْ أَسْتَخْدِمُ الْبِنْدُولَ تَقْرِيْبًا. لَمْ أَعُدْ أَعْلَمُ بِدِقَّةٍ كَمْ هُمْ الْيَوْمَ. لَكِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُمْ هُنَاكَ. تَوَاصَلُهُمْ صَارَ خَفِيًّا — نَفْسٌ، إِشَارَةٌ، حَدْسٌ صَادِقٌ يَأْتِي فِي اللَّحْظَةِ تَمَامًا. إِنْ كُنْتُ مُصْغِيًّا، يُجِيبُونَ. وَفِي هَذَا الْإِصْغَاءِ، أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ انْكِشَافٍ، يَسْتَقِرُّ الْآنَ مَسَارِي.

رُبَّمَا، فِي نِهَآيَةِ الْمَطَافِ، مَا نُسَمِّيهِ «دَرْبًا» لَيْسَ سِوَى عَوْدَةٍ بَطْنِيَّةٍ إِلَى وَحْدَةٍ لَمْ تُغَايِرْهَا قَطُّ فِي الْحَقِيقَةِ — عَوْدَةٍ إِلَى مَا يَصِلُنَا بِالْعَالَمِ، وَبِأَنْفُسِنَا، وَبِهَذَا السِّرِّ الَّذِي يَدْعُ نَفْسَهُ يُلْمَحُ، أحيانًا، فِي نَفْسٍ، أَوْ دَمْعَةٍ، أَوْ صَمْتٍ.

«فِي خِتَامِ هَذَا الدَّرْبِ، لَمْ أَكْتَشِفْنِي بَاحِثًا عَنْ جَوَابٍ — أَكْتَشَفْتُ أَنِّي الْجَوَابُ. وَمَا أَكْتَشَفْنُهُ فِي دَاخِلِي هُوَ مَا يَلْمَحُهُ كُلُّ كَائِنٍ بَشَرِيٍّ فِي لَحْظَةٍ حَقِيقَةٍ: أَنَّ الْأَلَمَ يُعْلَمُ، وَأَنَّ الْفَقْدَ يُوسِّعُ، وَأَنَّ الْحُبَّ يُنِيرُ. حِكَايَاتُنَا لَيْسَتْ مُلْكَنَا وَحْدَنَا — هِيَ شَطَايَا نُورٍ مَنُورَةٌ فِي قُلُوبِ الْآخَرِينَ. وَالْحَيَاةُ، فِي جَوْهَرِهَا، لَيْسَتْ سِوَى عَوْدَةٍ دَائِمَةٍ إِلَى الْوَاحِدِ — يَسْكُنُنَا كَمَا نَسْكُنُهُ — فِي رِحْلَةٍ مُشْتَرَكَةٍ بِلَا نِهَآيَةٍ.»





«أنا قَطْرَةٌ تَذْكُرُ الْمُحِيطَ.»



من أَرْقَى بيروت الضَّيِّقَةِ إلى صمت بوردو. من الأناشيد المقدَّسة في الهند إلى قلب مراسم
الآياهواسكا في غابات البرتغال. في «القَطْرَةُ وَالْمُحِيطُ»، يستعيد فرانسوا وائل بيضون مسارًا
حميمًا وكونيًا — طريقًا يبدأ في الفُقد وينتهي، بهدوء، في العِرفان.

هذه السيرة الذاتية ليست بيانًا. إنها شهادة حيَّة على سعي — رَبِّ تَتَحَوَّل فيه المَحَن إلى نور،
وتعود فيه قُدرات الروح المنسيَّة إلى الظهور شيئًا فشيئًا، ويغدو فيه كلُّ لقاء، وكلُّ جرح، وكلُّ
إشارة لا تُفَسَّر، مرآةً لشيء لا نهائي.

عبر الرؤى والتزامنات والتجارب التأسيسية — انبثاق الكونداليني، والتخاطر، وحكمة الأسلاف،
وكشوفات «ناضي شاسترا» الألفية — يكشف السرد عن حقيقة أعمق: أنَّ الحياة نفسها دعوة إلى
العودة إلى الوحدة. أنَّ لا شيء يضيع. أننا لم نكن يومًا، في الحقيقة، منفصلين عن الواحد.

فرانسوا وائل بيضون، مصمِّم صناعي منذ عام ١٩٨٩ ومستكشف روحي، هو مؤسِّس «شانيا»،
مكتب دراسات وتصميم مقرَّه في بوردو. تحمل كلماته صدى مَنْ عَبَّرَ الظِّلَّ والنَّارَ — وعادَ منها
لا بأجوبة، بل بشيء أندر: اليقين بأنَّ الأسئلة نفسها كانت هي الطريق.

لا يطلب هذا الكتاب الكثير: فقط صبر الإصغاء إلى ما لم نعتد سماعه. إنه يخاطب الذين يشكُّون
بقدر ما يخاطب الذين يؤمنون، والباحثين عن الحقيقة، والحالمين الساعين إلى المعنى — وكلِّ
الذين يسمعون النداء الصامت للواحد.